أعلام المسلمين
٢٠

أسامة بن زيد رضي الله عنه

حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حِبّه

الدكتور وهبة الزحيلي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٢٠

أسامة بن زيد ﵁

حِبّ رسول الله ﷺ وابن حِبّه

٩ ق هـ - ٥٤ هـ

الدكتور وهبة الزحيلي

دار القلم
دمشق

هذا الرجل

« إن أسامة بن زيد أحبُّ الناس إلي ـ أو من أحبِّ الناس إلي ـ وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً » .

ابن عمر عن رسول الله

« إنه ـ أي أسامة ـ لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

رسول الله

« كان النبي ﷺ يأخذني والحسن ، فيقول : اللهم إني أُحِبُّهما ، فأحِبَّهما » .

الإمام أحمد عن أسامة

« كان نبي الله ﷺ يأخذني ، فيقعدني على فخذه ، ويقعد الحسن بن علي على فخذه الأخرى ، ثم يضمنا ، ثم يقول : اللهم ارحمهما ، فإني أرحمهما » .

الإمام أحمد عن أسامة

« كان عمر بن الخطاب إذا لقي أسامة ، قال : مرحباً بأميري ... فإذا رأى أحداً يَعْجَب منه ، قال : لقد أمَّره علي رسول الله ﷺ » .

تاريخ ابن عساكر

الطبعة الثالثة

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :

دَارُ القَلَم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق

دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقـــدّمَة

الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على محمد نبي الرحمة ، وهادي الأمة ، وخاتم النبوة ، وعلى آله وصحبه مشاعل النور والهداية ، وسلّم تسليماً . وبعد :

فكلما تأملنا وتألمنا لواقعنا المعاصر ، وقارنا حال المسلمين اليوم من التفرق والضعف والتخلف واستعلاء الأعداء عليهم ، وحال الأمم الأخرى من الوحدة والقوة والتقدم والتفوق وإثبات الذات ؛ كلما خطر ببال المسلم وإحساسه وعقله مثل هذه الخاطرة السريعة والمقارنة العابرة ، كلما ازداد حباً ، وامتلأ إعجاباً وإكباراً بالصحب البررة الكرام ، الذين وضعوا البُنَى الأساسية الأولى لمجد الإســلام ، وعزته ، ومكانته ورفعته بين العالمين ، بتحملهم مسؤولياته الملقاة على عواتقهم جميعاً أفراداً وجماعات ، صغــاراً وكباراً ، نساءً ورجالاً .

ولا يعني هذا التأمل بداهة مجرد التفاخر والتــواكل ، والاعتماد في الحاضر على الأحساب وأمجاد الأُلى ، فهذا لايفيدنا شيئاً في مجال البنــاء والنهضة ، إلا من زاويــة استلهام روح

البطولات الرائدة ، ومعرفة العناوين البارزة ، التي لابد منها للرمز في حياة كل أمة ، حتى إن الأمم الفقيرة بالأمثلة التاريخية الغابرة تخترع أساطير وحكايات عن شخصيات وهمية لدفع شعوبها نحو الحركة والتقدم والبناء . وتاريخنا ـ ولله الحمد ـ غني حافل بوقائع نادرة لشخصيات حقيقية ، دونت أخبارهم بكل صدق ودقة وأمانة ، وبيِّن فيها الغث الهزيل ، أو الضعيف المكذوب الموضوع ، من الصحيح الثابت الأكيد المعقول .

وذلك مما يجعل المرء مطمئناً إلى صحة المنقول غالباً ، ويصبح الحديث عن السلف الصالح عنواناً طيباً صالحاً لبعث الحياة من جديد ، وتجديد الأمل ، واستعذاب المنى ، وتفجير الطاقات والقوى ، وإحداث الهزات الجذرية ، والتغييرات الفورية الثورية في جيل الاسلام وأمة الحاضر للاتجاه نحو الأفضل ، والعمل من أجل غد مشرق ، ومستقبل باسم مليء بالأمجاد لا مجال فيه لمتخاذل أو مستضعف ، أو متردد ، أو مبتدع مارق .

واعتقادنا واضح أن طريق العلاج أولاً هو بما صلحت به الأمة في صدر الاسلام : وهو العمل بالقرآن العظيم وبسنة خاتم النبيين ، اللذين يدعوان إلى الجهاد الداخلي والخارجي ، والاتحاد والتعاون ، والبناء والإعداد .

فليس الكلام الشيِّق المفصَّل عن حياة صحابي كأسامة بن زيد مجرد قصة أو ترجمة عابرة للتسلية وشغل الوقت ، كأغلب

قصص وثقافات السوق الرائجة ، وإنما لتبيين مـوطن العبرة ، وموضع العظة ، ومعرفة طريق الأمل والنور ، وفهمهم سبيل الإنقاذ المتعين للمسلمين من واقع التردي والانحدار ، والضياع ، والحيرة والترنح في تطبيق تجارب مستوردة عن الأمم الأخرى ، رغـم الكثرة والثروة عندنا ، وتوفر سبل المعرفة والعلم والثقافة لدينا ، ووضوح وسائل النهضة وبناء المجد ، وتحقيق الغلبة في مبادئنا ، أو على الأقل الحفاظ على المكاسب الموروثة ، والبلاد الغالية ، والأوطان العزيزة ـ لهذا قال مؤرخو السيرة والتراجم : « القصد من ذكر أخبار الأخيار شرح أحوالهم ، وأخلاقهم ، ليقتدي بها السالك » .

ولسنا ضد الإفـادة المطلقة من النافع المفيد عند غـيرنا ، فالحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدهـا التقطها ، وظروف العصر وحاجاته تستلزم التعايش معها ، والسير في فلكها . إنما نحن ضد التجارب التي لم يثبت مدى صحتها ، أو التي تتنافى مع بيئتنا ، وتنبو عن موازين عقيدتنا ، وتتنافر مع مبادىء شريعتنا ، وأصول الوحي الإلهي لنا ، وتقطع عرى علاقتنـا الاجتماعية ، وتهدم أو تضعف ارتباطنا بمقدساتنا ، وتشوّه معالم تاريخنا ، وتتصادم مع أخلاقنا .

والسبب واضح في تفضيل الكلام عن الصحابة الذين عاصروا الرسول ﷺ ، وشاهدوا الوحي ، لأن شخصية الصحابي رمز للكمال النسبي ، وتعبِّر حياته عن تكامل شخصيته علماً وعقلاً ،

وأدباً وخلقاً ، وتديناً والتزاماً ، ورجولة وتضحية وجهاداً دائماً في سبيل المبدأ والغاية ، وفي سمو من الاخلاص ، وطلب لرضوان الله وحده ، لامن أجل حظوظ نفسية ، ومطامع مادية ، وشهرة زائفة، ومجد زائل •

والصحابة كلهم تمثّلوا الاسلام قرآنه وسنته ، وعياً وأداء ، وتطبيقاً واعتقاداً ، فكانوا جميعاً عدولاً ، استحقوا أن يكونوا خير القرون[1] ، وخير أمــة أخرجت للناس • وقد ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله عزوجل عليهم وثناء رسوله ﷺ ، قال تعالى في بيــان أوصافهم : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم رُكّعاً سُجّداً ، يبتغون فضلاً من الله ، ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود » • وقال عزوجل في بيان استحقاقهم رضوان الله :« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه » •

وأعلن الحق سبحانه امتياز الصحب البررة بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر،

---

(١) القرن : ثمانون سنة ، وقيل : ثلاثون سنة ، وقال زرارة ابن أوفى : القرن مائة وعشرون سنة . والمعروف اليوم : أنه مائة سنــة •

وتؤمنون بالله » . قال بعض العلماء : كنتم بمعنى أنتم خير أمة ، وقيل : كنتم في علم الله (١) .

وقال النبي ﷺ : « ألا إنكم توفون تسعين أمة ، أنتم خيرها ، وأكرمها على الله » (٢) .

وقد نهى النبي ﷺ عن إيذاء أصحابه ، فقال : « لاتسبّوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق ملء أُحُد ذهباً ، ما بلغ مُدَّ أحدهم ، ولا نَصِيْفَه » (٣) .

وتجلّت خيريتهم فيما روى ابن القاسم عن مالك أنه سمعه يقول : لما دخل أصحاب رسول الله ﷺ بالشام ، نظر إليهم رجل من أهل الكتاب ، فقال : ما كان أصحابُ عيسى بن مريم الذين قُطعوا بالمناشير ، وصُلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء .

وقال رسول الله ﷺ : «خير الناس قَرْني،ثم الذين يلونهم،

---

(١) روي عن مجاهد انه قال : كانوا خير الناس على الشرط الذي ذكره الله تعالى ، يأمرون بالمعروف ، ويَنْهَوْن عن المنكر ، ويؤمنون بالله . وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من سَرَّه أن يكون من تلك الأمة ، فليؤدِّ شَرْط الله فيها .

(٢) رواه بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة القشيري عن أبيه عن جده .

(٣) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري .

ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادةُ أحدهم يمينه ، ويمينُه شهادته »[1] •

وأسامة بن زيد أحد هؤلاء الصحب الذين كانوا غُـرَّة في جبين التاريخ ، فهو صحابي جليل ، تربى في بيت النبوة ، ونشأ في ظل الاسلام النقي ، واشترك على حداثة سنه في معارك عديدة ، وكان القائد الفتى المظفر دون العشرين من العمر • ولئن كان في اجتهادات القضاة أحياناً وضع مبادىء ، أو بروز قضايا ذات مبدأ يسير على هَدْيها القضاة ، فإن في قيادة أسامة الحربية مبادىء تستحق التنويه والإشادة ، أو التحليل والدرس والعظة •

وسيظل التاريخ ناطقاً بمثلين بارزين في حياة أسامة :

أولهما : أنه أول قائد شن حربـاً وقائية مخيفة على دولة الروم العظمى في بلاد الشام بجيش من ثلاثة آلاف مقاتل فقط ، فهو قائد ابن قائد ، وهو الحب ابن الحب مولى رسول الله ﷺ •

ثانيهما : أنه القائد الفتى الذي تأمَّر على جيش فيه عمر بن الخطاب وكبار الصحابة ، ثم شيّعه أبو بكر بعدما استخلف ماشياً خارج المدينة ، وأسامة راكب •

وذلك دليل حي على أن الكفـاءة ليست بالسن ، كما أن أسامة كان أحـد الملَوَّنين السود الذين نعموا في ظل الاسلام

---

(١) رواه أحمد في مسنده والشيخان والترمذي عن ابن مسعود .

بمبدأ المساواة الفعلية مع كبار القرشيين ، بل مع الحسن الأبيض المتورد الخدين سِبْط رسول الله ﷺ ٠

وكان لأسامة مواقف جريئة مع حاكمين مرهوبين هما معاوية ابن أبي سفيان ومروان بن الحكم ، سنعرفها ٠

وكل ما ذكر ونحوه يصلح أنموذجاً فذاً لشباب الاسلام المعاصر ، بل للمسلمين قاطبة حيث انقلبوا ـ بعد تخلّيهم عن روح الاسلام ومادته ومعناه ـ من العزة والقوة إلى الذلّة والضعف ، ومن الرجولة إلى الأنوثة ، ومن الأخلاق المتماسكة إلى التحلل والضياع ، ومن الجهاد الذي يقض مضاجع العدو في عقر داره ، إلى استسلام وتسليم للبلاد وارتماء في أحضان الأعداء واستجداء واستغاثة وعويل وصراخ ، حل محل مواجهة العدو بالقوة ، والاستظهار عليه بالبطولة : « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادّون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ٠٠٠ » ٠

رضي الله عن أسامة في الخالدين ، ورحم الله أسامة وإخوانه من الصحابة الغر الميامين ، فما عرف التاريخ أعظم ولا أخلص ولا أنبل من صحابة رسول الله ٠ ولقد أكبرهم المسلمون وأحبوهم على مدى التاريخ ، ولست بأول ولا آخر المحبين لهم ولأسامة أميرهم ، فتسمى الكثيرون بأسمائهم ، تخليداً لذكراهم العظيمة ، وسميت أحد أبنائي « أسامة » ٠ نفعنا الله جميعاً بسيرة أسامة وأمثاله ، وحشرنا معهم في جنان الرضوان ٠

خطـة البحث :

الشخصية المتكاملة لاتحتمل التجزئة ، ودراستها الشيقة لا تنتظر الفواصل ، لأن القارىء سرعان ما تجتذبه الصفـات العالية المتناسقة ، وإنما نضطر أحياناً إلى اتبـاع منهج الفصول تسهيلاً للاطلاع ، وإبرازاً لأدوار ومراحل ومواقف العظماء ، لذا سيكون الكلام عن أسامة في فصول ستة :

الفصل الأول ــ حياة اسامة الشخصية (١) .

الفصل الثاني ــ مع النبي ﷺ .

الفصل الثالث ــ اوصافه الجسدية وفضائله الإنسانية .

الفصل الرابع ــ جهاد القائد الفتى .

الفصل الخامس ــ منزلته عند النبي ومكانته بين الصحابة .

الفصل السادس ــ مكانته العلمية ، اعتزاله الفتنة .

خاتمـة .

الدكتور وهبة الزحيلي

---

(١) لقد حرصت الا أذكر شيئاً عن أسامة إلا بمـا تدل عليه الروايات الموثوقة مع سرد الرواية نفسها ، دون تصرف فيهـا أو اجتزائها أو بتر بعضها ، كما يفعل عادة كثير من الكتاب الجدد ، وذلك ليظـل القارىء مرتبطـاً بالمصادر الأصلية ، وليتعـود على أسلوبهـا .

الفصل الأول

حياة أسامة بن زيد

الكلام عن أسامة في هذا الفصل يتناول معرفة اسمه ونسبه وكنيته ، واسم أبويه ، وتاريخ ولادته ووفاته ، وفرح المسلمين بولادته ، ومكان دفنه ، وتربيته في بيت النبوة ، وكيفية صلة أبيه بالنبي ﷺ ، وسكناه في دمشق[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٦١/٤ وما بعدها ، ٧٢ ، الاستيعاب لابن عبد البر : ٧٥/١ ، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير : ٦٤/١ ، الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر : ٣١/١ ، ٢١٢/٨ ، تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٠٨/١ ، تقريب التهذيب لابن حجر : ٥٣/١ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩١/٢ وما بعدها ، ٣٩٩ ، صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢١٠/١ ، الأعلام للزركلي : ٢٨١/١ وما بعدها ، العبر في خبر من غبر لمؤرخ الاسلام الذهبي : ص ٥٩، عمدة القاري شرح صحيح البخاري : ٢٣٤/١٦ .

١ ـ اسمه ونسبه وكنيته :

هو أسامة بن زيد ، بن حارثة ، بن شراحيل ، بن كعب ، ابن عبد العُزّى ، بن زيد ، بن امرىء القيس ، بن عامر ، بن النّعمان ، بن عامر ، بن عبد وُدّ ، بن عوف ، بن كنانة ، بن بكر ، ابن عوف ، بن عُذْرة ، بن زيد اللات ، بن رُفَيْدة ، بن ثور ، ابن كَلْب ، بن وَبْرة الكلبي .

فهو ذو نسب عربي أصيل ، ينتمي لكنانة عوف ، ومن أصوله مشاهير العرب في اللغة والبيان كامرىء القيس ، وزيد اللات . كما أنه ينتمي لقبيلة معروفة بشدة المراس والصلابة والحزم والحروب ، هي قبيلة كلب ، قال البخاري في تاريخه ، ومسلم : يقال : إن زيداً من كلب من اليمن .

وكنيته :

أبو محمد ، ويقال : أبو زيد ، ولقبه : الحِبّ ابن الحِبّ ـ مولى رسول الله ﷺ ، كان يسمى حِبّ رسول الله ، ويقال له : أسامة الحِبّ أي المحبوب ـ .

٢ ـ ابواه :

ولد من أبوين كريمين لهما صلة مباشرة بالنبي ﷺ ، فأبوه زيد بن حارثة مولى رسول الله ، وغلامه ، وابنه بالتبني قبل تحريم التبني في الاسلام ، فكان يقال له : زيد بن محمد . وظل يدعى

كذلك حتى بعد البعثة النبوية إلى أن أبطل الاسلام التبني [1] بقوله عز وجل : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » « ادعوهم لآبائهم، هو أقسط عند الله » فأصبح يُدْعى : زيد بن حارثة[2] . وبه يظهر أن أبا أسامة كان من أحب الناس إلى قلب النبي .

وأمه هي « بَركة الحبشية »[3] المكناة بأم أيمن حاضنة النبي ﷺ التي كانت مملوكة لآمنة بنت وهب أم الرسول عليه

---

(١) التبني : إلحاق ولد من غيره به ، ويسمى دَعيّاً وجمعه أدعياء . وقد حرمه الاسلام لمجافاته الصدق والنسب الحقيقي ، كما أنه يترتب على التبني مفاسد ومضار ، فإن قصرت الدولة مثلاً بتربية اللقطاء ، ورغب إنسان بإرواء نزعة الأبوة أو الأمومة لديه ، فلا مانع من تربية لقيط ، إنقاذاً له من الضياع والموت ، على أن لا يسجل ابناً في دائرة الأحوال المدنية ويخرج من الأسرة بعد البلوغ ، ويعامل كأجنبي عن الأسرة بالنسبة لعدم الإرث ، ويجوز الوصية له بشيء من المال بعد الوفاة ، أو هبته مالاً في حال الحياة .

(٢) روى البخاري وغيره عن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد ابن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » .

(٣) بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان ، مولاة رسول الله ﷺ ، ورثها من أبيه عبد الله ، وقيل من أمه ، وحضنته وهو صغير ، توفيت سنة ١١ هـ (البداية والنهاية لابن كثير : ٦/٣٣٤) .

هذا والذي أظنه أن أم أيمن بركة هذه ليست حبشية ؛ إذ
←

الصلاة والسلام ، فربَّته في حياتها ، وحضنته بعد وفاتها ، فكان يقول عنها : هي أمي بعد أمي ، وبقية أهل بيتي . ولما ملكها النبي بعد وفاة أبويه ، أعتقها وزوجها زيد بن حارثة . وبه يتبين أن أم أسامة بمثابة أم النبي بعد أمه . وكان الرسول يزورها ، وكان أبو بكر وعمر يزورانها في منزلها ، كما كان النبي يزورها .

٣ ـ ولادته ووفاته وتوابعهما :

ولد أسامة في السنة التاسعة قبل الهجرة (٩ ق هـ) وتوفي سنة ٥٤ هـ ، ويقال : توفي سنة ٥٨ هـ . وقال ابن عبد البر عن القول الأول : وهو عندي أصح إن شاء الله . وقد فرح المسلمون بولادته ، لفرح النبي بذلك ، لأن أباه زيد ابن النبي بالتبني ، وموضع سرِّه ، وأحب الناس إليه بعد الإسلام ، ومن أول الناس إسلاماً ؛ ولأن أمه حاضنة النبي ، وكانت بمثابة أم النبي بعد وفاتها . فكان للأبوين منزلة كبيرة عند النبي ، ومكانة عالية لهما في نفسه عليه السلام ، فما يفرحه ويسره يفرح ويسر المسلمين .

←

ليس من المعقول أن يكون لها هذا النسب العربي وهي حبشية . ويظن أن الرواة خلطوا بينها وبين خادمة أخرى للنبي ﷺ اسمها بركة الحبشية وكانت قد جاءت بها من الحبشة زوج النبي أم حبيبة .

وإن صح أن أم أيمن حبشية ، فإذن لا يصح لها هذا النسب.
أما بالنسبة لسنة وفاتها فقد قيل غير ما ذكرت ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه الاصابة هذه الأقوال وناقشها .

وكان عُمْر أسامة يوم وفاة النبي ﷺ عشرين عاماً ، على ما قرر أكثر كتاب التراجم، وقال ابن أبي خيثمة : ثماني عشرة[1].

واعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات وهو ابن خمس وستين سنة في أواخر خلافة معاوية .

وكان لأسامة عشرون ولداً ، قال محمد بن عمر : لم يبلغ أولاد أسامة من الرجال والنساء في كل دهر أكثر من عشرين إنساناً [2] . وسنذكر في الفصل التالي قصة زواجه وأسماء بعض أولاده ، لصلة النبي بتزويجه .

وكان اعتزاله ومسكنه « المِزّة »[3] من ضواحي دمشق بعد فتحها ، قال له معاوية : اختر لك منزلاً ، فاختار المزة . ثم رجع فسكن في ضيعة له في « وادي القرى »[4] ، ثم عاد إلى المدينة فمات بها في « الجُرْف »[5] ، ثم حُمل من « الجرف » إلى المدينة بعد موته ، ودفن فيها .

---

(١) وهذا الذي يوافق أن سنة ولادته هي ٧ ق هـ .

(٢) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ .

(٣) المزة : ضاحية من ضواحي دمشق في الجنوب الغربي من دمشق ، وقد اتصل بنيانها تقريباً بدمشق على بضعة كيلو مترات (نصف فرسخ) .

(٤) وادي القرى : واد بين المدينة والشام ، من أعمال المدينة، كثير القرى .

(٥) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو دمشق .

قال سعيد المَقْبُري : شهدت جنازة أسامة ، فقال ابن عمر : **عجّلوا بحِبّ رسول الله قبل أن تطلع الشمس .**

٤ ـ تربيته في بيت النبوة :

كان أبوه « زيد » من أول الناس إسلاماً ، عاش مع النبي على أنه ابنه بالتبني ، وولد له «أسامة» بمكة ونشأ في ظل النبوة، وترعرع وأدرك في بيت النبي وفي رعايته وتربيته ، فآمن بالاسلام منذ صغره ، ولم يعرف إلا الاسلام ديناً خالصاً لله تعالى ، ولم يدن بغير الاسلام عقيدة وعملاً وسلوكاً ، وتربى على أنه جندي للاسلام ، يضحي بكل شيء في سبيل عقيدته التي آمن بها ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة ، وتقلب في أجواء الوحي والتنزيل القرآني . وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً ، وكان عنده كبعض أهله[١] .

تربية عالية كهذه ، ونشأة إسلامية صرفة ، كفيلان بتكوين نفس على أحسن مايريد الاسلام ، عقلاً ووعياً ، وتفانياً في سبيل المبدأ والعقيدة ، وشجاعة وإقداماً ، وإيماناً راسخاً كالجبال ، وعلماً وفقهاً ، كل ذلك كان إرهاصاً ليصبح أسامة ــ وهو ابن ثماني عشرة سنة ــ أحد مشاهير قادة الاسلام .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٢/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦١/٤ .

٥ ـ صلة زيد أبي أسامة بالنبي :

إنها لعناية إلهية أدركت زيداً ليكون في عداد أسرة النبي ﷺ ، وإنها لسعادة كبرى لم يحظ بها عربي في التاريخ • وقع في الأسر والسِّباء ، إذ كان شأن السبي الوقوع في قيد العبودية ولكنها الألطاف الربانية ، نقلته من العبودية إلى الحرية وتبني النبي ﷺ له • وهذا ماتم لزيد [1] •

فقد قامت سُعْدى بنت ثعلبة بن عبد عامر من بني معن من طيء أم زيد بزيارة قومها،ومعها ابنها زيد بن حارثة الكلبي،فأغارت خيل لبني القَيْن بن جسر في الجاهلية ، فأخذوا المال والإبل ، وسبوا الذراري (النساء والصبيان) ، وكان زيد وهو غلام يفعة في الثامنة من عمره ممن وقع في السباء ، فأتوا به سوق عُكاظ[2]، فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، بأربعمائة درهم •

فلما تزوج الرسول ﷺ بخديجة ، وهبته له ، فتبناه الرسول

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦١/٤ ، عمدة القاري شرح البخاري : ٢٣١/١٦ ، الاصابة لابن حجر : ٥٦٣/١ ومابعدها، الاستيعاب لابن عبد البر : ٥٤٢/٢ ـ ٥٤٧ ، تقريب التهذيب : ٢٧٣/١

(٢) سوق عكاظ : اشهر أسواق العرب في الجاهلية ،للاقتصاد والأدب في الأشهر الحرم،يبيعون ويشترون منتجاتهم ، ويتناشدون الأشعار ، وذلك بناحية في عرفة .

بمكة قبل النبوة ، وهو ابن ثمان سنين ، وأعلم قريشاً بذلك ، وقال واقفاً به بالحِجْر[1] على ملأ من قريش : يا معشر قريش ، اشهدوا أن هذا ابني يرثني وأرثه .

وحزن أبو زيد لسبيه ودله على موضعه وفد من الحجاج من قوم زيد ، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ، لفدائه ، فقدما مكة، فسألا عن النبي ﷺ ، فقيل : هو في المسجد ، فدخلا عليه ، وقالا:

يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكّون العاني (الأسير) وتطعمون الجائع وتغيثون الملهوف ، وقد جئناك في ابننا عندك ، فامنُن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فإنا سنرفع لك في الفداء أي ما تشاء .

قال : ومَنْ هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : فهلاّ غير ذلك ؟

قالوا : وماهو ؟ قال : أدعوه فأُخيِّره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ على من اختارني أحداً .

قالا : قد زدتنا على النَّصَف[2] ، وأحسنت .

فدعاه ، فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : مَنْ هذا ؟ قال : هذا أبي ، وهذا عمي .

---

(١) هو حجر الكعبة : وهو ماحواه الجدار القصير من البيت .

(٢) النصف : أي الإنصاف .

قال : فأنا من قد علمتَ ، ورأيت صُحبتي لك ، فاختَرْني أو اخترهما •

قال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني مكان الأب والعم •

فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعَمّك ، وعلى أهل بيتك !

قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً •

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك ، أخرجه إلى الحِجْر ، فقال : يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابني ، يرثني وأرثه •

فلما رأى ذلك أبوه وعمّه ، طابت نفوسُهما ، فانصرفا ، ودُعي : زيد بن محمد ، حتى جاء الاسلام فنزلت : « ادعوهم لآبائهم » فدعي : زيد بن حارثة • ودُعي الأدعياء إلى آبائهم • فدعي المقداد إلى عمرو ، وكان يقال له قبل ذلك : المقداد بن الأسود ، لأن الأسود بن عبد يغوث ، كان قد تبناه •

قال الزهري : ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة • وروي عن الزهري أيضاً : أن أول من أسلم خديجة •

وشهد زيد بدراً • وزوجه رسول الله ﷺ مولاته أم أيمن ، فولدت له أسامة بن زيد ، وبه كان يكنى ، كما زوجه النبي بعدئذ زينب بنت جحش ، وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب •

وكان يقال لزيد بن حارثة : حِبُّ رسول الله ﷺ • روي عنه ﷺ أنه قال : أحب الناس إليّ : من أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ــ يعني زيد بن حارثة ــ أنعم الله عليه بالاسلام ، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بالعتق •

وأخرج ابن سعد بإسناد حسن وهو عند أحمد مطوّل ، أن النبي ﷺ قال لزيد بن حارثة : « يا زيد أنت مولاي ومني وإلي، وأحب القوم إلي » •

ويقال : إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سمّاه : « زيداً » لمحبة قريش في هذا الاسم ، وهو اسم قصي •

فدعاه المسلمون بـ « زيدِ الحِبِّ » وأطلقوا عليه لقب « حِبّ » رسول الله ، أي محبوبه ، ولقبوا ابنه أسامة من بعده بحِبِّ رسول الله ، وابن حِبّه •

واستُشهِد زيد بن حارثة بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة ، وهو ابن خمس وخمسين ، وهو أمير جيش تلك الغزوة ضد الروم ، المكوّن من ثلاثة آلاف مقاتل ، وقال رسول الله ﷺ : أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً ، فليجعلوه عليهم • وعقد لهم رسول الله ﷺ لواءً أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة • ثم بعد استشهاد القادة الشجعان الثلاثة ، اصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فأخذ اللواء ، فقال

رسول الله : الآن حمي الوطيس ! ففتح الله عليهم • وقال خالد : اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية • وهكذا أحدث خالد انقلاباً في تنظيم صفوف المسلمين ، فخُيِّل للروم أن مدداً كبيراً قد جاء من عند النبي ﷺ، فتقاعسوا عن مهاجمة خالد ، فأمر جنده بالتراجع مع حماية ظهورهم ، وترقب العدو ، حتى تم الانسحاب • فلما عاد الجيش إلى المدينة ، تلقَّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون بالجُرْف ، فجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فُرار ، فررتم في سبيل الله ؟ ! فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفُرَّار ، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى[1] •

وهكذا نسج الحب المتبادل والتقدير العميق بين النبي وزيد نسيجاً لا تنفصم عراه ، ولا تبلى للأبد لحمته وسداه ، فقد حظي زيد بحب النبي ، وسرى هذا الحب في دمه ولحمه ، وامتد بكل قواه إلى ولده وفلذة كبده : أسامة ، وأنتج الحب الصادق توأمين: الأب وابنه ، وأصبح زيد وابنه الحِبّ وابن الحِب مثلين رائعين ورمزين خالدين للحب الخالد والعاطفة المخلصة الصافية • فهنيئاً لمن طفح قلبه بحب النبي ، وهنيئاً ألف مرة لمن أحبه النبي صلوات الله وسلاماته عليه •

(١) طبقات ابن سعد : ٢/٢٨ وما بعدها ، الروض الأنف للسهيلي : ٢/٢٦٠ ، سيرة ابن هشام : ٢/٣٨٢ ، البداية والنهاية : ٤/٢٤٨ ، تاريخ الطبري : ٣/١٠٩ .

فهل من المستغرب بعدئذ أن يبيــع الوالد أو الولد نفسه رخيصة في سبيل الله ، فيـُسـْتـَشـْهد الأب ، ويتصدر الابن لقيادة جيش يأتمر بأمره عمر وكبار الصحابة ؟ إنه الاسلام قبل وبعد كل شيء الذي جعل الموت في سبيل المبدأ هو غايــة المؤمن ، سواء أكان هذا المؤمن كبيراً في ظل قيادة صغير ، أو صغيراً يرأس جيشاً لامجال للشيطان في ملء قلب صاحبه بالهوى والوسواس والعجب والكبر ، وحب التسلط والسيطرة .

٦ ـ الطعن في نسب أسامة :

زيد بن حارثة رجــل أبيض من اليمن ، وامرأته أم أيمن حبشية الأصـــل سمراء ، وأسامة ابنه الذي ولدته أسود [١] ، فارتاب الناس في زيد وابنه ، وتماروا في ذلك ، وطعنوا في نسب أسامة ، وتكلموا بقول كان يسوء رسول الله ﷺ بسبب اختلاف اللون .

وإذا أراد الله تعالى ستر إنسان هيأ له الأسباب : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ؛ فحدث ذات مرة أن كان زيد بن حارثة

---

(١) قال ابو داود : كان اسامة اسود ، وكان زيد ابيض . وقال ابراهيم بن سعد : كان زيد احمر ابيض اشقر ، وكان اسامة ابن زيد مثل الليل (نيل الأوطار : ٦/٢٨٢ ، تهذيب تاريخ ابـــن عساكر : ٢/٣٩٣) .

وأسامة بن زيد مضطجعين ، فدخل ــ صدفةً ــ قائف[1] ورسول الله ﷺ شاهد ، فقال : هذه الأقدام بعضها من بعض ، فسُر بذلك النبي ﷺ وأعجبه[2] .

أثر القيافة في السنة :

تضافرت كتب السنة النبوية على نقل خبر هــذه الواقعة المفرحة المثيرة بأسانيد صحيحة . قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ دخل عليَّ مسروراً تبرُق أسارير[3] وجهه ، فقال : ألم تَرَيْ أن مُجَزِّزاً[4] نظر آنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، فقال : إن هذه الأقدامَ بعضها من بعض ؟! رواه الجماعة .

وفي لفظ أبي داود وابن ماجــه ، ورواية لمسلم والنسائي والترمذي : « ألم تَرَيْ أن مُجَزِّزاً المُدْلجيَّ رأى زيــداً وأسامة ، قد غَطَّيا رؤوسهما بقطيفة ، وبدت أقدامُهما ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » .

---

(1) القائف : هو الذي يعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود .

(2) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٢/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦٣/٤ .

(3) الأسارير في الأصل : خطوط الكف ، أطلق على ما يظهر على وجه من سره أمر ، من الإضاءة والبريق .

(4) مجزز : اسم فاعل من الجز ، لأنه جز نواصي قوم .

وفي لفظ قالت : « دخل قائف ، والنبي ﷺ شاهد ، وأسامة ابن زيد وزيد بن حارثة مضطجعان ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض ، فسر بذلك النبي ﷺ وأعجبه ، وأخبر به عائشة » . متفق عليه . قال أبو داود : كان أسامة أسود ، وكان زيد أبيض[1] .

وبهذا ألقم القائف العربي المدلجي حجراً أفواه قالة السوء، وتبرأ زيد وابنه من الاتهامات الباطلة ، وحمى الله الشرفاء الذين رُبُّوا في مهاد النبوة وفي رعاية النبي من كل قول قبيح . وليس الأمر بغريب ، لأن قضية اللون والشبه بالأب لايلزم أن تكون سبباً في نفي النسب ، ولا تلازم أحياناً بين لوني الأب والابن ، فقد يكون الأب أبيض والابن أسود .

واقعة مشابهة :

وتكرر في عصر الرسول عليه السلام مثل هذه الواقعة . روى الأئمة الستة إلا مالكاً عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال : ولد لي غلام أسود ، وهو يُعرِّض بأن ينفيه[2] ، فلم يرخص له في الانتفاء منه ، فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : ما ألوانها ؟ قال : حُمْر ، قال : هل فيها من

(١) نيل الأوطار : ٢٨٢/٦ ، منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥ .

(٢) أي أن ينفي نسبه عنه بأيمان اللعان الخمسة المتكررة في سورة النور : الآيات (٦ ــ ٩) .

أوْرَق[1] ؟ قال : نعم ، قال أنَّى ذلك ؟ قال : لعله نزعه عِرْق ، قال : فلعل ابنك نزعه عرق[2] !!

رأي الفقهاء في القيافة :

استنبط الفقهاء من حادثة القائف مع زيد وأسامة : أنه يثبت النسب بالقيافة ، قال الخطابي : في حديث عائشة دليل على ثبوت العمل بالقيافة ، وصحة الحكم بقولهم في إلحاق الولد ، وذلك لأن رسول الله ﷺ لايظهر السرور إلا بما هو حق عنده .

وقد أثبت الحكم بالقيافة عمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء والأوزاعي ومالك والشافعي وأحمد[3] .

ولكن لاحكم للقيافة مع ثبوت الفراش في ثبوت النسب عملاً بحديث : « الولد للفراش وللعاهر الحجر »[4] .ولا يعترض بأن أسامة قد ثبت فراش أبيه شرعاً ، فنسبه ثابت ، وإنما أخذ

---

(١) الأورق : الأسمر ، والوُرقة : السمرة ، يقال : جمل أورق ، وناقة ورقاء (النهاية : في غريب الحديث والأثر لابن الأثير : ٥/١٧٥) .

(٢) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد لابن سليمان الروداني : ١/٦٢٤ ، نيل الأوطار : ٦/٢٧٨ .

(٣) نيل الأوطار: ٦/٢٨٢ وما بعدها،سبل السلام: ٣/٢١٢ .

(٤) متفق عليه من حديث ابي هريرة ، وقد رواه الجماعة إلا ابا داود (نيل الأوطار : ٦/٢٧٩ ، سبل السلام : ٣/٢١٠) .

بالقيافة في تلك الحادثة ـ أي وفي غيرها ـ لصدّ المتقوّلين بسبب اختلاف اللون بين زيد وأسامة .

ومما يؤيد العمل بالقيافة أنه ﷺ قال لأم سُلَيم لما قالت: أَوَتحتلم المرأة ؟ : « فمن أين يكون الشبه » وقال : « إن ماء الرجل إذا سبق ماء المرأة ، كان الشبه له » وقال في قصة اللّعان : « إن جاءت به على صفة كذا ، فهو لفلان ، أو على صفة كذا فهو لفلان » فإنه دليل الإلحاق بالقيافة والعمل بها ، لكن لم يعمل بها في هذه القصة بسبب أيمان اللعان التي منعت عن إلحاق نسب الولد بالملاعن[1] .

* * *

---

(١) نيل الأوطار : ٢٨٣/٦ ، سبل السلام : ٢١٢/٣ .

الفصل الثاني

في صحبة النبيّ

صلى الله عليه وسلم

تميَّز أسامة بمقومات شخصية فريدة ، وانفرد من بين الصحب الكرام بحُب الرسول ﷺ ، وحظي بقُرْب لصيق بقلب النبي ، لأنه كان يتمتع على حداثة سنه بالنباهة والفطنة والذكاء والحكمة والأدب الجم والحياء الكثير ، مما بوأه أن يكون أثيراً مكرَّماً عند النبي ، ينشأ في بيته ، ويترعرع في ظله ، ويعيش في رعايته ، ويتربى في كنفه ، فصار ذا منزلة عالية عند النبي ، ومستشاراً له في بعض الأمور ، وشفيعاً في بعض القضايا إذا لم تمس الشفاعة مبدءاً من مبادىء الاسلام الكبرى •

دل على ذلك مظاهر متعددة ، ومواقف رائعة ، جسَّدت فيه وفي أمثاله مبدأ الاسلام العظيم وهو المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات •

اولاً ـ حب النبي لأسامة :

اشتهر أسامة بكونه حِبّ رسول الله وابن حبّه ، وتلك منزلة فريدة يغبطه عليها سائر المسلمين ، حتى إنه احتل رتبة الحب بعد ابنته فاطمة ، وقبل علي بن أبي طالب ، مما يظهر من الوقائع التالية :

كان النبي ﷺ يقعد أسامة على فخذه ، ويقعد الحسن على الفخذ الآخر ، ويقول : « اللهم ارحمهما ، فإني أرحمهما » أو « اللهم أحبّهما ، فإني أحبّهما » . قال أسامة واصفاً ذلك : إن رسول الله ﷺ كان يأخذني ، والحسن بن علي ثم يقول : « اللهم أحبهما فإني أحبهما »(1) . وبه تساوى في الحب مع الحسن . وشاع أمر حبه بين الصحابة ، فحكى القصة ابن عمر قائلاً : إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « أحب الناس إلي أسامة ماخلا فاطمة ، ولا غيرها » .

وأكد القصة آخرون ، حدّث هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أسامة بن زيد لأحب الناس إلي ، أو من أحب الناس إلي ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً »(2) .

---

(1) الطبقات الكبرى : ٦٢/٤ ، تاريخ ابن عساكر : ٣٩٣/٢ ، جامع الأصول : ٢٧/١٠ . ويلاحظ أن الروايتين صحيحتان موجودتان عند البخاري ، والرواية الأولى في مسند أحمد أيضاً : ٢٠٥/٥ .

(2) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عمر ، راجع الاستيعاب : ٧٦/١ ، جامع الأصول : ٢٦/١٠ .

وقالت عائشة : لاينبغي لأحد أن يبغض أسامة ، بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان يحب الله ورسوله ، فليحب أسامة » وقال أيضاً : « أسامة أحب الناس إلي » .

وليس الحب الصادق حديثاً عابراً ، أو مجرد عاطفة قلبية ، أو ابتغاء مصلحة أو غاية ، وإنما هو تفانٍ في سبيل المحبوب ، ورعاية مصالحه ، والحفاظ عليه ، في الواقع البارز ، لافي حدود النظريات والفرضيات . ومما يلفت النظر إلى صدق الحب النبوي لأسامة حادثتان غريبتان بعد النبوة لاقبلها :

١ ـ أخرج مسلم عن عائشة أنها قالت : أراد رسول الله ﷺ أن يمسح مخاط أسامة ، فقلت : دعني حتى أكون أنا التي أفعله ، فقال : يا عائشة : أحبِّيه ، فإني أحبه [١] .

٢ ـ وقالت عائشة أيضاً : دخل أسامة على النبي ﷺ ، فأصابته عَتَبَة الباب ، أو أسْكُفَّة الباب ، فشج في وجهه ، أو شج في جبهته ، فقال : يا ابنة أبي بكر ، قومي فامسحي عنه الأذى أو يا عائشة : أميطي عنه الدم ، فتقذَّرتْه ، فقام إليه النبي ﷺ ، فجعل يمص شَجَّتَه ويَمُجُّه ، ويقول : لو كان أسامة جارية ، لكسوته ، وحلَّيته ، حتى أنفقه للرجال .

---

(١) أخرجه البخاري عن أسامة ، راجع تاريخ ابن عساكر : ٣٩٥/٢ ، جامع الأصول لابن الأثير : ٢٧/١٠ .

وروى ابن سعد : أن أبا السَّفَر (هو سعيد بن محمد) قال : بينما رسول الله ﷺ جالس هو وعائشة ، وأسامة عندهم ، إذ نظر في وجه أسامة فضحك ، ثم قال : أما والله ، لو أن أسامة جارية لحليتها وزينتها حتى أنفقها[1] .

وأخرج الواقدي عن عطاء بن يسار أنه قال : كان أسامة بن زيد قد أصابه الجدري ، أول ما قدم المدينة ، وهو غلام مخاطه يسيل على فيه ، فتقذرته عائشة ، فدخل رسول الله ﷺ ، فطفق يغسل وجهه ، ويُقبِّله ، فقالت عائشة : أما والله بعد هذا ، فلا أُقصيه أبداً .

ورواه أبــو يعلى ولفظه : قالت عائشة : أمرني رسول الله ﷺ أن أغسل وجه أسامة يوماً ، وهو صبي ، وما ولدتُ ، ولا أعرف كيف يغسل الصبيان ، قالت : فأخذته ، فغسلته غسلاً ليس بذاك ، فأخذه مني رسول الله ﷺ ، وجعل يغسل وجهه ، ويقول : لقد أحسن بنا إذ لم يك بجارية ، ولو كنت جارية ، لحلَّيتُك ، وأعطيتك[2] .

---

(١) ابن عساكر : ٣٩٥/٢ و ٣٩٦ ، منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥ ، الطبقات الكبرى : ٦٢/٤ ، أسد الغابة : ٨٨/١ ، ورواه بنحوه أبو بكر البيهقي والإمام أحمد ، واورده الحافظ ابن حجر من سبعة طرق يقوي بعضها بعضاً .

(٢) ابن عساكر : المرجع والمكان السابق .

تأميره على الجيش :

ويحسم النبي ﷺ جدل الناس في صلاحية أسامة لقيادة الجيش الاسلامي إلى الشام مبيناً كفاءته وحبه له ، وتوسم النصر والخير لديه .

قال عبد الله بن عمر فيما يرويه مسلم : بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن الناس في إمرته ، فقام رسول الله ﷺ فقال : إن تطعنوا في إمرته ، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل ، وايْمُ الله ، إن كان لخليقاً للإمرة ، وإن كان لمن أحب الناس إلي ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بَعْدَه » .

وروى عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال ، وهو على المنبر : إن تطعنوا في إمارته ، يريد أسامة بن زيد ، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله ، وايم الله ، إن كان لخليقاً لها ، وايم الله ، إن كان لأحبَّ الناس إلي ، وايْمُ الله ، إن هذا لها لخليق ، يريد أسامة بن زيد ، وايم الله ، إن كان لأحبَّهم إليَّ من بَعْدِه ، فأوصيكم به ، فإنه من صالحيكم »(١) .

---

(١) رواهما مسلم في صحيحه (شرح مسلم للنووي : ١٥/١٩٥–١٩٦) والرواية الاولى أخرجها أيضاً البخاري والترمذي (جامع الأصول : ٢٦/١٠) وانظر الطبقات الكبرى: ٦٥/٤ ومابعدها منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥ .

إردافه خلف النبي :

ويتقرر أمر حب النبي لأسامة في الحضر والسفر ، لأن الحب يستلزم ملازمة الحبيب ، فكان النبي ﷺ يردف وراءه أسامة مرات عديدة في أثناء السفر ، قال أسامة : إن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة ، وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد ابن عبادة قبل وقعة بدر . ودخل النبي مكة يوم الفتح ورديفه أسامة ، فأناخ في ظل الكعبة ، ودخلها مع بلال وأسامة . وأفاض النبي من عرفات وأسامة رديف النبي ﷺ [1] ، بل إن النبي ﷺ أخر الافاضة من عرفات بعض التأخير من أجل أسامة الذي ذهب يقضي حاجته[2] .

وروى أسامة في ذلك حديثاً يعتبر مناراً للمسافرين : « رويداً أيها الناس ، عليكم السكينة ، فإن البر ليس في الايضاع » أي في إسراع السير[3] .

---

(١) فتح الباري شرح البخاري : ٨/٨١ ، الطبقات الكبرى : ٤/٦٤ ، أسد الغابة : ١/٦٥ ، مسند احمد : ٥/٢٠٧ ، منتخب كنز العمال : ٥/١٣٥ .

(٢) حدّث بذلك عامر الشعبي ، كما حدث بالواقعة ابن عباس فقال : « جاءنا رسول الله ﷺ ، ورديفه أسامة بن زيد ، فسقيناه من هذا النبيذ (كالعصير اليوم) فشرب ، ثم قال : احسنتم فهكذا فاصنعوا » .

(٣) مسند أحمد : ٥/٢٠٢ .

فلما جاء غلام أفطس أسود ، قال أهل اليمن : ماحبسنا بالافاضة اليوم إلا من أجل هذا .

قال عروة : إنما كفرت اليمن بعد وفاة رسول الله من أجل أسامة .

قال يزيد بن هارون : يريد عروة : إن ردّة أهل اليمن التي ارتدوها زمن أبي بكر ، إنما كانت لاستخفافهم بأمر النبي ﷺ(1) .

تفضيل عمر له بالعطاء على ابنه :

وما إن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، إلا وقد مَثَل في أذهان الصحابة ، واشتهر بين الناس وضوح أمر هذا الحب من النبي لأسامة ، كما يتجلى ذلك في مثل هذه القصة :

قال ابن عمر : فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لي ، فقلت: إنما هجرتي وهجرة أسامة (أي إلى المدينة) واحدة ؟ فقال : إن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك ، وإنه كان أحب إلى رسول الله منك ، وإنما هاجر بك أبواك ، فآثرت حِبّ رسول الله ﷺ على حِبّي(2) .

---

(1) تاريخ ابن عساكر : ٣٩٦/٢ ، الاستيعاب : ٧٥/١ ومابعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٣/٤ وما بعدها .

(2) رواه المحاملي والدراوردي والترمذي عن ابن عمر (تاريخ ابن عساكر : ٣٩٥/٢ ، جامع الأصول : ٢٧/١٠ وما بعدها ، الطبقات الكبرى : ٧٠/٤ ، منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥) .

وقال ابن اسحاق : إن عمر فرض لابنه ثلاثة آلاف ، وفرض لأسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : أأجعل حِبّ رسول الله كحِبّ نفسي ؟!

وفي رواية : أنه فرض لأسامة أربعة آلاف .

ثانياً ـ كسوته بردة النبي :

في يوم من الأيام خلع النبي ﷺ بردته الشريفة على كعب بن زهير بن أبي سُلمى ، الذي هو من أعرق الناس في الشعر في الجاهلية ، المتوفى سنة ٢٦ هـ ، وذلك لما أنشد النبي لاميته المشهورة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .

بعد أن جاء مستأمناً عقب إهدار النبي دمه ، ثم أسلم .

وتكرر هذا الحادث المعبِّر عن مدى الحب والتقدير لأسامة، في شبابه ، فخلع النبي عليه حُلَّة ثمينة رائعة . فقد أهدى حكيم بن حزام أحد سراة قريش للنبي ﷺ في أثناء الهدنة التي كانت بين رسول الله وبين قريش حُلَّة ثمينة كانت « لذي يَزَن » أحد ملوك اليمن ، اشتراها بخمسين ديناراً وقيل : بثلاثمائة دينار ذهباً ، فردها عليه رسول الله ، وقال : إني لا أقبل هدية مشرك (وكان حكيم يومئذ مشركاً) فاشتراها منه النبي بثمنها .

وقد لبسها النبي الكريم مرة واحدة في يوم جمعة ، ثم كساها أسامة بن زيد ، فكان يروح بها ويغدو بين شباب المهاجرين والأنصار .

وقد رآها عليه حكيم ، فقال : بخٍ بخٍ يا أسامة ، عليك حلّة ذي يزن ، فقال رسول الله : قل له : وما يمنعني ، وأنا خير منه ، وأبي خير من أبيه [1] .

وتكرر إهداء النبي بعض الأثواب لأسامة بن زيد :

فقد روى أحمد في مسنده عن أسامة قال : كساني رسول الله ﷺ قُبْطِيَّة[2] كثيفة ، كانت مما أهداها دِحْية الكلبي ، فكسوتها امرأتي ، فقال لي رسول الله ﷺ : مالك لم تلبس القبطية ؟ قلت : يا رسول الله ، كسوتها امرأتي ، فقال لي رسول الله ﷺ : مُرْها فلتجعل تحتها غلالة [3] إني أخاف أن تصف حجم عظامها [4] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ٣٩٦/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦٥/٤ .

(٢) القُبْطِيّة : الثوب من ثياب مصر ، رقيقة بيضاء ، وكأنه منسوب إلى القِبْط ، وهم أهل مصر . وضم القاف من تغيير النسب ، وهذا في الثياب ، فأما في الناس فقِبطي بالكسر .

(٣) الغِلالة : ما يلبس تحت الثوب .

(٤) مسند أحمد : ٢٠٥/٥ ، الطبقات الكبرى : ٦٤/٤ ومابعدها .

ثالثاً ـ تزويج النبي له وعدد زوجاته وبعض اولاده :

كفاه فخراً ، وزاده شرفاً ، مـن زكّاه النبي ﷺ ورشحه للقيادة أم للزواج ، أو لغيرهما ، فتلك شهـادة سامية بالكفاءة والكياسة ، والأخلاق ، والسيرة الحميدة والسلوك الطيب .

فقد زوج النبي أسامة وهو ابن خمس عشرة سنة امرأة من طيء ، ففارقها ، فزوجه أخرى ، فولدت له في زمن رسول الله ، وأولم رسول الله على بنائه بأهله[١] .

وقد تزوج أسامة خمساً أو ستاً من النساء ، فارق بعضهن وأبقى بعضهن عنده .

قال محمد بن السائب الكلبي : تزوج أسامة بن زيد هند بنت الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، ودُرّة بنت عدي بن قيس بن حُذَافة بن سعد بن سهم ، فولدت له محمداً وهنـد .

وتزوج أيضـاً فاطمة بنت قيس أخت الضحـاك بن قيس الفِهْري ، فولدت له جُبيراً وزيداً وعائشة .

وتزوج أم الحكم بنت عُتبة بن أبي وقاص وبنت أبي حمدان السَّهْمي .

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٦ .

وتزوج بَرزة بنت ربْعيّ مــن بني عـُذْرة ، ثم من بني رِزاح ، فولدت له حسناً وحسيناً[1] .

وقد روى المؤرخون بعض قصص زواجــه وفراقه لبعض النسوة ، منها ما رواه محمد بن عمر ، قال : كان رسول الله ﷺ يحب أسامة بن زيد ، فلما بلغ وهو ابن أربع عشرة سنــة[2] تزوج امرأة يقال لها : زينب بنت حنظلة بن قـُسامة ، فطلقهــا أسامة فجعل رســول الله ﷺ يقول : مــن أدُلـّه على الوضيئة الغـَنين[3] ، وأنا صهره ؟

فجعل رسول الله ﷺ ، ينظر إلى نـُعيم بن عبد الله النحـَّام، فقال نـُعيم : كأنك تريدني يا رسول الله ، قال : أجـَلْ . فتزوجها، فولدت له إبراهيم بن نعيم ، فقتل إبراهيم يوم الحـَرّة[4] .

قال محمد بن عمر : لم يبلغ أولاد أسامة من الرجال والنساء أكثر من عشرين إنساناً[5] .

---

(١) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ .

(٢) لاحظنا أن رواية أخرى هي للواقدي ذكرت ذلك وهو ابن خمس عشرة سنة .

(٣) الغنين : المراة القليلة الأكل .

(٤) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ . ويوم الحرّة : حدث في المدينة سنة ٦٣ هـ ، وهو يوم مؤلم قتل فيه كثير من أبنــاء الصحابة في معركة دارت بين عقبة بن مسلم وأهل المدينة .

(٥) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ .

ومن قصص زواجه الطريفة زواجه بفاطمة بنت قيس ، قالت: إن أبا عمرو بن حفص طلقها ألبتة ، وهو غائب بالشام ، فأرسل إليها وكيله بشعير ، فسخطته ، فقال : والله ، مالك علينا من شيء.

فجاءت رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك له ، فقال : ليس لك عليه نفقة ، فأمرها أن تقعد في بيت أم شريك ، ثم قال : إن تلك المرأة يغشاها أصحابي ، اعتدي عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى ، تضعين ثيابك . فإذا حللت أي من العدة ، فآذنيني .

قالت : فلما حللت ، ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني[1] ، فقال رسول الله ﷺ :

أما أبو جهم ، فلا يضع عصاه عن عاتقه .

وأما معاوية فصعلوك ، لامال له ، أنكحي أسامة بن زيد . قالت : فكرهته . ثم قال : أنكحي أسامة ، فنكحته ، فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به .

---

(١) يظهر أن الخطبة الصريحة كانت بعد انتهاء العدة ، لأنه يحرم خطبة المعتدة بطريق التصريح باتفاق الفقهاء ، سواء أكان سبب وجوب العدة وفاة الزوج أو الطلاق ، رجعياً أم بائناً . اما خطبة المعتدة بطريق التعريض فتجوز في حال الوفاة ، وتحرم في حال الطلاق الرجعي ، وكذا البائن عند الحنفية ، وتحل عند غيرهم .

ورواه الإمام أحمد بلفظ : أما معاوية فترِبٌ[1] ، لا مال له ، وأما أبو الجهم فضرّاب للنساء[2] .

وفي رواية للواقدي أن النبي ﷺ قال : أنكحوا أسامة فإنه عربي صليب [3] .

هذه تزكية رائعة خالدة من رسول الله ﷺ لأسامة تشهد له بسمو خلقه ، ورفعة شأنه ، وعلو منزلته وقدره ، وتفضيله على أبناء بعض سادة قريش كمعاوية . وقد استدل الفقهاء كالمالكية بحديث فاطمة هذا على أن الكفاءة في النسب في الزواج لا تعتبر ، فلا يُفضَّل العربي على غيره ، لأن النبي ﷺ أشار على فاطمة بأن تتزوج بأسامة ، وفاطمة هذه قرشية ، وأسامة ليس قرشياً ، وإنما هو من الموالي ، مولى ابن مولى .

واستدل الحنابلة بحديث فاطمة هذا ، فلم يوجبوا للمعتدة من طلاق بائنٍ النفقةَ بأنواعها الثلاثة (الطعام والكسوة والسكنى) لأن فاطمة طلَّقها زوجها ألبتة ، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى .

---

(١) الترب : الفقير .

(٢) قيل : هذا كناية عن أنه كثير الضرب للنساء ، وقيل : هو كناية عن كثرة أسفاره ، لأن المسافر يحمل عصاه في سفره .

(٣) تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٣ ، ٣٩٦ . والصلب والصليب: الشديد .

رابعاً ـ كونه مستشار النبي :

قصة الإفـك :

كان الرسول ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين نسائه ، فأيَّتُهنَّ خرج سهمها ، خرج بها معه . فلما كانت غزوة بني المُصْطَلِق أقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فوقعت القرعة على عائشة . وفي أثناء عودة الرسول من سفره ، استراح بعض الليـل قرب المدينة ، ثم أمر بالرحيل ، فتحرك الركب ، واقتاد القائد بعير عائشة وهم يظنون أنها جالسة في الهَوْدج ، لكنها كانت قد نزلت منه ، لقضاء حاجتها ، فسقط عِقْدها ، فتخلفت للبحث عنه ، ورجعت إلى مكانها الذي ذهبت إليه،فوجدته ، ثم عادت إلى محطة العسكر فوجدت الناس قد انطلقوا .

فاضطجعت في مكانها ، متلففة بجلبابها حتى لايراها الناس، فمرَّ بها صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمي الذي كان أيضاً قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فوقف قريباً منها ، فعرفها لأنه كان يراها قبل فرض الحجاب على زوجات النبي ﷺ . فقال :

إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ !

ثم قال لها وهي متلففة في ثيابها : ما خلَّفك ، يرحمك الله ؟ فما كلَّمته . ثم قرب البعير ، فقال : اركبي ، واستأخر عنها . فركبت ، وأخذ برأس البعير ، يقوده سريعاً ، حتى أدرك الناسَ في الصباح .

فقال أهـــل الإفك من المنافقين ماقالوا ، ولا تعلم شيئاً من ذلك . وأعرض الرسول ﷺ عنها ، بالرغم من اشتداد مرضها إلا أنه كان يعودهـــا ، فيسأل أمهـــا أم رُومَان ـ زينب بنت عبد دُهمان ـ كيف تيكم ؟ لا يزيد على ذلك .

ثم انتقلت إلى بيت أبيها ، مستأذنة النبي ، فأذن لها ، حتى شفيت من مرضها ، بعد بضع وعشرين ليلة . ثم علمت بقول أهل الإفك بزعامة زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، فبكت دموعاً غزاراً ، وقالت : فوالله ، مازلت أبكي ، حتى ظننت أن البكاء سيصْدَع (سيشق) كبدي .

ثم خطب الرسول ﷺ في الناس ، فقـــال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس ، مابال رجال يؤذونني في أهلي ،ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل ، والله ما علمت منـــه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي .

ثم نشب نزاع حاد بسبب ذلك بعد هذه الخطبة بين الخزرج (الذين كان أهل الإفك منهم) وبين الأوس [1].

---

(١) انظر قصة أهل الإفك في سـيرة ابن هشام : ٢٩٧/٢ ـ ٣٠١ ، زاد المعاد : ١٥٨/٢ .

استشارة اسامة وعلي :

وكان أسامة ذا ذكاء حاد ، وفطنة بالغة ، وحكمة بعيدة ، وتفكير متزن هادىء ، وعقل ناضج مبكّر ، بوأه كل ذلك ليكون موضع ثقة النبي ﷺ ، وأحد مستشاريه .

فاستشاره النبي في هــذه القضية الخطيرة ، كما استشار عليّاً رضي الله عنه .

أما أسامة فأثنى على عائشة خيراً ، ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل .

وأمــا علي فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية ، فإنها ستصدقك .

فدعا رسول الله ﷺ بُريرة ليسألها ، قالت : فقام إليها علي ابن أبي طالب ، فضربها ضرباً شديداً ، ويقول : اصدُقي رسول الله ﷺ ، قالت : فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أَعيب على عائشة شيئاً ، إلا أني كنت أعجن عجيني ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله .

براءة عائشة بالوحي :

ثم نزل من السماء وحي متلو إلى يوم القيامة يعلن براءة عائشة من قول أهل الإفك ، فقال تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عُصْبَة منكم ، لاتحسبوه شراً لكم ، بل هــو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كِبْره منهم له عذاب عظيم » .

قال ابن هشام : وذلك عبد الله بن أبي وأصحابه[1] . وهذا هو القول المشهور .

خامساً ـ شفاعته عند النبي في المخزومية :

كان أسامة بسبب حب النبي له وتكريمه إياه هو شفيع الأمة عند رسول الله ﷺ . قال جعفر بن محمد عن أبيه : كان أسامة يأتي النبي ﷺ في الشيء فيُشَفِّعُه فيه فأتاه مرة في حد ، فقال: يا أسامة لا تشفع في حد[2] .

والقصة : أن امرأة من قريش اسمها فاطمة من بني مخزوم سرقت ، والسرقة توجب قطع يد السارق ، فاهتم الناس بشأنها ، وبذلوا الوسائط لإعفائها .

فقد ثبت في السنة عن عائشة : أن قريشاً أهمهم المرأة المخزومية التي سرقت[3] ، فقالوا : من يُكلّم رسول الله ﷺ ، ومن يجترىء عليه إلا أسامة حِبُّ[4] رسول الله ﷺ ؟! فكلّم رسول الله ﷺ ، فقال : « أتشفع في حد من حدود الله ؟! ثم قام فخطب ، فقال :

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٠١/٢ ـ ٣٠٣ .

(٢) الطبقات الكبرى : ٦٩/٤ .

(٣) اسمها فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . وعمها أبو سلمة .

(٤) الحب : بكسر الحاء : المحبوب .

يا أيها الناس، إنما ضلّ من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايْمُ الله،لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لَقطعَ محمد يدها»[1].

وذلك دليل قاطع على تحريم الشفاعة في الحدود ، وترهيب فاعلها ، فقد وصفه النبي ﷺ بمضادة الله تعالى في أمره : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فهو مضادّ الله في أمره »[2] كما أن ترك الحدود والمداهنة فيها ، وإسقاطها عن الأكابر من أسباب هلاك الأمم وتدميرها ، وأن إقامة الحدود من غير فرق بين الشريف والوضيع من أسباب حياة الأمم وسعادتها وتقدمها ورقيها.

وتلك هي مزية الاسلام الكبرى في تحقيق المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات ، دون تمييز أحد أو فئة على غيرهم .

سادساً ـ إعلان مبدا المساواة في الاسلام احد حقوق الانسان:

كان أسامة حقلاً خصباً لتطبيق مبدأ المساواة في الاسلام في ميدان الحقوق والواجبات ، كما لاحظنا في بنود هذا الفصل

---

(١) متفق عليه ورواه الإمام احمد ، وانظر : عمدة القاري : ٢٣٢/١٦ وما بعدها ، نيل الأوطار : ١٠٧/٧ ، ١٣٥ وما بعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٩/٤ وما بعدها ، تاريخ ابن عساكر : ٣٩٣/٢ .

(٢) رواه احمد وأبو داود عن ابن عمر (نيل الأوطار: ١٠٧/٧).

السابقة ، سواء في تسويته بالحسن بن علي ، أو في محبة النبي له كمحبته أبيه ، أو في إماطة الدم والأذى عن جبهته ، أو في كسوته بردته ، أو تزويجه امرأة قرشية كتزويج أبيه زيد بامرأة حرة هي زينب بنت جحش ، أو في منعه من الشفاعة في حد من حدود الله تعالى المفروضة شرعاً لصون الدماء والأموال والأعراض والعقول ، أو مبدأ الدين كله .

ويلاحظ أن الاسلام أعلن من الناحيتين النظرية والفعلية مبدأ المساواة في الاسلام ، مما لم يكن يألفه العرب ، ولا يريدونه ، بل إن بعضهم أنف من اعتناق الاسلام خشية إلزامه بالمساواة الفعلية مع غيره .

والاسلام كشأنه في كل ماشرع يلتزم الحكمة والتعقل ، ومراعاة الواقع بقدر الامكان فيما لا يصادم أصل المبدأ ، وغاية التشريع أو المساس بعموم الحكم الشرعي .

فالمساواة بين الناس ليست كما يتحدث عنها أصحاب الأهواء أو النظريات شرقاً أو غرباً ، فليس هناك مساواة مطلقة ، ولا مساواة ضيقة ، وإنما المساواة في ظل الاسلام لها معنى يتغلغل في النفوس البشرية والقيم الانسانية .

فقد سوى الاسلام بين الناس مساواة مطلقة في الانسانية ، قال الله تعالى : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وأعلن القرآن وحدة المنشأ والأصل الانساني : « يا أيها الناس ، اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » فلا امتياز لشعب على آخر ، ولا تفاضل بين الناس في الأنساب والأصول والدماء والألوان والأحساب . وأكد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه هذا المعنى في حجة الوداع ، إذ قال : « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ... أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

وأما فيما عدا ذلك ، فإن المساواة مقيدة في الاسلام بإطار من العدل ، وسياج من العاطفة والرحمة بين الناس ، فلا يستوي العالم والجاهل ، والمؤمن وغير المؤمن ، والتقي والفاسق أو البر والفاجر ، أو المنتج والعاطل ، والمجاهد والقاعد ، أي أن هناك تفاوتاً في المواهب والصفات ، والانتاج والعطاء ، والعمل والبناء وصالح الأعمال : « قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » « لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ... » .

وينبغي أن تتحقق المساواة المطلقة في أمور ثلاثة :

١ً ـ المساواة في القيم الانسانية المشتركة :

فلا تفاضل في الأجناس ، فالجنس الآري والحامي والسامي كلها ســواء ، ولا تمييز في الألوان ، فالأبيض والأسود والأحمر والأصفر على حد سواء ، ولا تفاضــل في الأنساب والأحساب ، فالعاملة الشريفة ، والاخرى الوضيعة لهما حقوق متساوية .

٢ً ـ المساواة أمام القانون :

الناس جميعاً متساوون في الحدود والعقوبات ، وفي تكافؤ الفرص . وقد رأينا حرمة الشفاعة في الحدود في قصة أسامة الذي زجره النبي عن الكلام في حد السرقة .

ويستتبع هذا الحق المساواة أمـام القضاء في الدعوى والاثبات والأحكام القضائية العادلة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم » « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ومن مظاهر هذا المبدأ المساواة في التوظف دون تمييز بسبب القوم أو اللون أو المنصب أو الشهرة أو السن ، أو القرابة أو الغنى . وقد أمَّر النبي ﷺ على الجيش الاسلامي بعض الموالي مثل زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، وابنه أسامة في بَعْثٍ هاجم الامبراطورية الرومانية في بـلاد الشام ، وكانت بعض الولايات الاسلامية يحكمهـا بعض الموالي أحياناً . ولا يصح أن يحرم إنسان من ممارسة الحقوق السياسية والوصول إلى أرقى المناصب في دولة الاسلام .

وهذا كله كفيل بإرساء صرح العدل بين الناس ، ومنع الظلم ، ودفن كل ألوان الحقد والكيد والضغينة ، وإشاعة الرضى والطمأنينة على الحقوق ، وإحساس الضعيف بكرامته وعزة نفسه أمام القوي •

٣ ـ المساواة في النواحي الاقتصادية :

فلا يصح أن ينخفض أجر امرىء لأنه أسود مثلاً ، ويعطى آخر أجراً أعلى لكونه أبيض أو من عائلة رفيعة أو أسرة عريقة، إذا تساووا في العمل ، فالناس جميعاً متساوون في الأجور وثمرات الأعمال ، والتفاوت إنما هو بينهم على قدر أعمالهم ، فالرجل وعطاؤه ، والرجل وجهاده ، والرجل وتناجه •

كذلك الناس متساوون في التكاليف والمشاركة في تحمل أعباء الجهاد والمعارك ، دون استثناء أحد إلا بعذر •

وعندها لا يبقى مجال في النظرية الاسلامية والتطبيق لما يسمى بالتفرقة العنصرية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، بالرغم مما نشاهده اليوم من هذه التفرقة في مخطط أرقى دول العالم الغربي حضارة•

* * *

الفصل الثالث

أوصافه الجسدية وفضائله الإنسانية

إن أسامة بن زيد كان مثلاً عالياً للفضائل الإنسانية والصفات العالية . فهذا هو الجوهر والمقياس ، سواء أكان بلون أبيض أو أسود ، قال النبي ﷺ : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(1) .

اولاً ـ وصفه الجسدي وصفاته الفطرية :

كان أسامة كأمه الحبشية أفطس الأنف أسود ، على عكس أبيه زيد الذي كان أبيض أشقر ، قال ابراهيم بن سعد : كان زيد أحمر أبيض أشقر ، وكان أسامة بن زيد مثل الليل (2) .

وكان كسيدنا علي بطيناً ، فكان يقال له : ذو البطن أسامة ابن زيد ، قال يزيد بن الأصم : كان لميمونة قريب ، فرأته وقد

---

(1) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

(2) طبقات ابن سعد : ٦٣/٤ ، تاريخ ابن عساكر : ٣٩٣/٢ ، أسد الغابة : ٦٦/١ ، الاستيعاب : ٧٦/١ ، مسند أحمد : ٢٠٢/٥ .

أرخى إزارة بطنه ، فلامَتْه في ذلك مَلامة شديدة ، فقال لها : إني قد رأيت أسامة بن زيد يُرْخي إزاره ، قالت : كذبت ، ولكن كان ذا بطن ، فلعل إزاره كان يسترخي إلى أسفل بطنه [1] .

وكان أسامة حاد الذكاء ، فطناً حكيماً يضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، شجاعاً بطلاً مغواراً ، عفيف اللسان ، مترفعاً عن الدنايا ، يألف ويؤلف ويحبه الناس ، عالي الهمة ، متفانياً في القيام بالواجب ، ذا عقل كبير وفكر ناضج مبكر ، بدليل استشارة النبي له في أمور كثيرة ، من أهمها قصة الإفك .

* * *

ثانياً ــ فضائله وأخلاقه :

تميز أسامة بفضائل جمعت بين خيري الدنيا والآخرة ، فهو عَفُّ اللسان ، جريء في الحق ، سابق إلى الإسلام والخيرات ، تقي ورع زاهد .

آ ــ عفة لسانه ، موقفه مع مروان :

كان أسامة يؤثر الصمت في مواطن الفحش والسوء ، ويدفع من يسيء إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة ، وتبرهن الأحداث والمواقف المحرجة على ذلك ، منها موقفه التالي مع مروان بن الحكم [2] :

---

(١) الطبقات الكبرى : ٧١/٤ .

(٢) الاستيعاب : ٧٦/١ ، أسد الغابة : ٦٦/١ .

حدث مرة أن أسامة بن زيد وقف يصلي عند قبر النبي ﷺ فدُعِي مروان بن الحكم إلى جنازة ليصلي عليها ، فصلّى عليها، ثم رجع ، وأسامة يصلي عند باب بيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال له مروان : إنما أردتَ أن يُرى مكانُك ، فقد رأينا مكانَك ، فعل الله بك وفعل — قولاً قبيحاً — ثم أدبر ، فانصرف أسامة وقال :

يامروان ، إنك آذيتني ، وإنك فاحش متفحش ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله يبغض الفاحش المتفحش .

ب ـ جرأته في الحق ، موقفه مع معاوية :

أسامة كشأن كل الصحابة كان قوي الإيمان جريئاً في الحق، لا يداري ولا يماري ، ولا يسكت على ضيم ، ولا يقبل الذل والعار ، ويأنف من الصغار ، ويحافظ على أسمى درجات العزة والكرامة الشخصية . من ذلك موقفه الآتي مع معاوية (١) :

قدم أسامة على معاوية بالشام ، فأجلسه معه وألطفه ، فمدَّ أسامة رجله ، فقال معاوية : يرحم الله أم أيمن ، كأني أنظر إلى

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٨ .

ظُنبوب [1] ساقها بمكة ، كأنه ظنبوب نعامة خَرْجاء [2] ، فقال أسامة : فعل الله بك يا معاوية ، هي والله خير منك ، قال معاوية : اللهم غفراً .

ج ـ سبقه إلى الإسلام :

أسامة من السابقين الأولين إلى الإسلام عقيدة وهجرة ، كأبيه زيد الذي كان أول الناس إسلاماً ، وهذا دليل واضح على سلامة الفطرة ، وإصابة التفكير ، ورجاحة العقل .

قال بعض أهل العلم : إن أباه زيداً كان أول الناس إسلاماً ، وولد له أسامة بمكة ، ونشأ حتى أدرك ، لم يعرف إلا الإسلام لله ، ولم يدن بغيره ، وهاجر مع أبيه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً ، وكان عنده كبعض أهله [3] .

أي أنه في المنزلة كبعض آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام.

د ـ تقواه وزهده وورعه :

كان أسامة في التقوى والطاعة والعبادة والزهد ، مثلاً يقتدى به ، عرف طريق الجنة بالعبادة فسلكه ، وأحس بعظم

---

(١) الظنبوب : العظم الظاهر وهو الساق ، أو حرف عظم الساق من الأمام .

(٢) الخرجاء : التي فيها بياض وسواد .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٢ .

ثواب الصوم والتهجد في الليل فصام ، وهجر لذة المنام ، فصلى في جوف الليل وقام ، كما أحس بأن نعيم الحياة موقوت ، ونعيم الآخرة دائم خالد ، فعزف عن الأول ، وعكف على الثاني ، وعلم أن الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال وفناء فلم يأبه بزخارف اللباس والزينة ، ولمس هيبة الله وجلاله ، فخاف عذابه وخشي عقابه ، وأدرك مزايا الصالحين ، فالتزم طريقهم ، وأيقن أن باب الجنان والرضوان هو الجهاد في سبيل الله ، فجاهد وقاتل ، وقاد جيش الإسلام ، كما سنوضح . وهذه أمثلة من تقواه :

روى أحمد في مسنده عن مولى أسامة أن أسامة بن زيد كان يخرج في مال له بوادي القرى ، فيصوم الاثنين والخميس ، فقلت له : لم تصوم في السفر ، وقد كَبِرْتَ ورَققْتَ[1] ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ كان يصوم الاثنين والخميس . فقلت : يارسول الله ، لم تصوم الاثنين والخميس ؟ قال : إن الأعمال تُعرضُ يوم الاثنين والخميس[2] . وأسنده الحافظ ابن حجر من أربعة طرق .

وروى أبو يعلى أن أسامة قال : كنت أصوم شهراً من السنة،

---

(1) في رواية : ورفُعتَ .

(2) مسند أحمد : ٢٠٥/٥ ، الطبقات الكبرى : ٧١/٤ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٨/٢ .

فذكرته للنبي ﷺ ، فقال : أين أنت عن شوال ؟ فكان أسامة اذا أفطر أصبح الغد صائماً من شوال ، حتى يتم على آخره [1] .

وقال أبو سعيد الخدري [2] : اشترى أسامة وليدة (جارية) بمائة دينار إلى شهر ، قال : فسمعت رسول الله يقول : ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل ، والذي نفسي بيده ، ما طرَفَتْ عيناي إلا ظننت أن شُفْري [3] لا يلتقيان ، حتى يقبض الله روحي ، ولا رفعتُ طرفي ، فظننت أني واضعه حتى أقبض ، ولا لقِمتُ لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها ، حتى يَغصّ بها الموت .

ثم قال : يا بني آدم ، إن كنتم تعقلون ، فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ، إنما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين .

لا شك أن أسامة تمثل هذا القول النبوي فأثر في نفسه أيما تأثير ، فكان زاهداً في الدنيا ، مقبلاً على الآخرة .

هـ ـ التزامه الدقيق بحكم الشريعة :

غلط أسامة مرة في أول تجربة حربية في قتال العدو ، فقتل ـ في غمرة إظهار شجاعته ، وتأثراً بغصبية العربي ـ محارباً

---

(1) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٨/٢ .

(2) المرجع السابق : ٣٩٦/٢ .

(3) الشفر واحد أشفار العين ، وهي حروف الأجفان .

حاول اتقاء القتل بإعلان كلمة التوحيد ، فقال : لا إله إلا الله ، فاعتبر أسامة ذلك خداعاً ، وخوفاً لا صدقاً ولا اعتقاداً ، فلامه النبي ﷺ لوماً شديداً أثر في مجرى حياته ، فاعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ، خشية أن يتورط مرة أخرى في قتل مسلم نهى رسول الله ﷺ عن قتله .

روى أحمد[1] عن أسامة بن زيد ، قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَات[2] ، فنذروا بنا ، فهربوا ، فأدركنا رجلاً ، فلماه غشيناه ، قال : لا إله إلا الله ، فضربناه حتى قتلناه ، فعرَض في نفسي من ذلك شيء ، فذكرته لرسول الله ﷺ ، فقال : من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ ! قال : قلت : يارسول الله ، إنما قالها مخافة السلاح والقتل ؟ فقال : ألا شققت عن قلبه ، حتى تعلم من أجل ذلك أم لا ، من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ قال : فما زال يقول ذلك حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ .

ولهذه القصة روايات أخرى فيها بعض الزوائد والفوائد : حدث الحضرميّ — رجل من أهل اليمامة — قال : بلغني أن رسول الله ﷺ ، بعث أسامة بن زيد ، وكان يحبّه ويحب أباه قبله ، بعثه على جيش ، وكان ذلك من أول ما جُرِّب أسامة في قتال ، فلقي ،

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٠ ، ٢٠٧ .

(٢) الحرقات ، من جهينة .

ففاتل ، فذُكر منه بأس • قال أسامة : فأتيتُ النبيﷺ ، وقد أتاه البشير بالفتح ، فإذا هو متهلل" وجهه ، فأدناني منه ثم قال : حَدِّثْني •

فجعلت أحدِّثه ، فقلت : فلما انهزم القوم ، أدركت رجلاً ، وأهوَيْتُ إليه بالرمح ، فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته ، فقتلته ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ، وقال : ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ فلم يزل يردّدُها علي ، حتى لوددت أني انسلخت من كل عمل عملته، واستقبلت الإسلام يومئذ جديداً ، فلا والله لاأقاتل أحداً قال لا إله إلا الله ، بعدما سمعت رسول الله ﷺ (١) •

وعن إبراهيم التَّيْمي عن أبيه قال : قال ذو البطن أسامة بن زيد : لا أقاتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله أبداً ، فقال سعد بن مالك : وأنا والله ، لا أقاتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله أبداً ، فقال لهما رجل : ألم يقل الله : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ؟ فقالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين لله (٢) •

---

(١) الطبقات الكبرى : ٦٩/٤ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٤/٢ وما بعدها .

(٢) الطبقات الكبرى ، المرجع والمكان السابق ، وانظر اسد الغابة : ٦٥/١ .

الطريف في هذه الحادثة أنها أعلمت قادة الحروب بمبدأ ثابت دائم ألا وهو حرمة إراقة الدماء بغير حق ، وأن الخطأ الذي ارتكبه أسامة لن يتكرر ، فقد تاب توبة خالصة ، وندم ندماً شديداً حزّ في نفسه طوال عمره ، مما يدل على صدق أسامة في إطاعة أحكام الله وتفانيه الكامل في تنفيذ حكم شرع الله تعالى.

بره بأمه :

إن النفوس العالية العاقلة الطيبة هي التي تدرك ماللأبوين من فضل عظيم ، وحرمة كبرى ، فتسارع إلى طريق الجنة : وهو بر الأبوين ، وذلك أمر يسير ، بل هو معاملة بالمثل فكما يعامل المرء أبويه يعامله أبناؤه ، لأن « البر لا يبلى ، والذنب لاينسى ، والديّان لا يموت ، اعمل ماشئت كما تدين تدان » ، وقال النبي ﷺ : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم »[1] « بر الوالدين يزيد في العمر »[2] « بر الوالدين يجزىء عن الجهاد »[3] .

وقد ضرب لنا أسامة المثل الأعلى في بر أمه ، ومعاملته الطيبة لها . قال محمد بن سيرين : بلغت النخلة على عهد عثمان ألف

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر .

(٢) رواه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة ، لكنه ضعيف .

(٣) رواه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلاً ، وهو حديث حسن .

درهم ، فعمد أسامة إلى نخلة ، فنقرها ، وأخرج جُمَّارها[1] ، فأطعمها أمه ، فقالوا له : ما يحملك على هذا ، وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم ؟ فقال : إن أمي سألتني ، ولاتسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتها[2] .

* * *

---

(١) الجمارة : هي الجزء الأبيض الغض من قلب النخلة ، أو ما يحيط بالبرعمة الرئيسية الكبيرة . وهي حلوة المذاق تخلو من الألياف . وقد يبلغ وزن بعضها كيلو غرام أو أكثر حسب حجم رأس النخلة . وهي تؤكل مباشرة أو يصنع منها مأكولات مثل الحميس ومخلل الجمار وحلاوة الجمار .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/ ٣٩٨ ، الطبقات الكبرى : ٤/٧١ .

الفصل الرابع

جهاد الفتى القائد

كان من أنضج ثمار تربية أسامة في بيت النبوة إعداده الحربي وتوثبه للجهاد في سبيل الله ، وتطلعه للقاء العدو صغيراً وكبيراً دون مهابة ، وفكره الثاقب في التخطيط للنصر الحربي المؤزر ، وإحراز أفضل المكاسب بأقل جهد ممكن ، وادخار الطاقات المعنوية والمادية لما ينتظر من ردود الفعل المعاكس من العدو الماكر ، الذي لا يعرف غير القسوة والعنف أو الوحشية والهمجية سبيلاً ، كما لا يستهدف من حروبه غير الغنيمة المادية ، أو قهر المسلمين الذين ينادون باحترام القيم الإنسانية ، أو إعلاء كلمة الله تعالى ، ونشر مبدأ التوحيد الإلهي وما يستتبع من فضائل وغايات سامية : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

فكان أسامة مثلاً أعلى للشجاعة النادرة ، والإقدام والجرأة ، والإخلاص في سبيل مبدأ الإسلام ، سواء أكان جندياً عادياً أم قائداً فتى مظفراً ، وهو دون العشرين من العمر . وبطولة أسامة في

حداثة سنه لها أمثلة نادرة طريفة في عصر الصحابة وما بعده من تاريخ الإسلام • منها أن غلامين قتلا رأس الكفر وعدو الله أبا جهل في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، وهما مُعاذ بن عمرو بن الجموح ، ومُعوذ بن عفراء • ثم أجهز عليه في آخر رمقة فى آخر هو عبد الله بن مسعود الذي وضع رجله على عنقه، فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت مُرْتقى صعباً يارويعي الغنم ؟ ثم جزّ رأسه ، وجاء به رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل • فاستخفه ــ أي النبي ــ الفرح ، ثم قال النبي حين رأى جثة أبي جهل : الحمد لله الذي أخْزَاكَ، هذا فرعون هذه الأمة[١] •

كما تَذكّرنا بطولة أسامة القائد الفتى : بفاتح السند [٢] وهو ابن سبع عشرة سنة وهو محمد بن القاسم الثقفي (٦٢ ــ نحو ٩٨ هـ) في العصر المرواني الأموي [٣] •

وأستعرض فيما يأتي أبرز مواقف جهاد أسامة :

أولاً ــ في معركة أحد سنة ٣ هـ :

جاء أسامة وهو في سن الرابعة عشرة إلى النبي ﷺ يوم أحد ، مع نفر من فتيان الصحب الكرام ، فأجاز النبي من كان في

---

(١) الاستيعاب : ٣/٩٩٠ وما بعدها ، سيرة ابن هشام : ١/٦٣٥ وما بعدها .

(٢) السند : بلاد بين الهند وكرمان وسجستان .

(٣) جوامع السيرة : ص ٣٤٩ .

سن الخامسة عشرة يومئذ وهما سَمُرة بن جُندب الفَزاري ، ورافع بن خديج من بني حارثة ، لأن رافعاً رامٍ يحسن الرمي بالسهام ، ولأن سمرة يَصْرَع رافعاً ، لقدرته الجسدية .

ورد رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وعَمْرو بن حزم ـ وهما من بني مالك ابن النجار ـ والبراء بن عازب ، وأسَيْد بن ظُهَيْر ـ وهما من بني حارثة ـ وعَرَابة بن أوس ، وزيد بن أرقم ، وأبا سعيد الخدري [1] .

فتألم أسامة، ورجع وعيناه تدمعان ألاّ يجاهد من رسول الله ﷺ . وقد استثنى الشرع من الجهاد في غزوة تبوك الضعفاء والمرضى ، كما أنه لم يكلف أحداً بالتكاليف الشرعية إذا كان دون سن البلوغ . والقرآن نزل بالاستثناء في سورة التوبة : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألاّ يجدوا ما ينفقون » .

---

(1) سيرة ابن هشام : ٦٦/٢ ، جوامع السيرة لابن حزم : ص ١٥٩ .

ثانياً ــ في غزوة الخندق سنة ٥ هـ :

في هذه الغزوة تكررت محاولة أسامة مع نفر من الصحابة للمشاركة في الجهاد ، وجعل يرفع قامته ليجيزه رسول الله ، فرَقَّ له النبي ﷺ ، وأجازه بعد أن بلغ خمس عشرة سنة •

ومن هنا استنبط الفقهاء أن سن التكليف بالتكاليف الشرعية هو تمام الخامس عشرة سنة •

ومن ثَمَّ حمل أسامة راية الجهاد في سبيل الله ، وشارك في سائر الغزوات مع النبي ﷺ إلا في غزوة مؤتة ، ففي إمرة أبيه زيد •

ثالثاً ــ في غزوة مؤتة سنة ٨ هـ (في جمادى الأولى) :

اشترك أسامة في هذه الغزوة ضد الروم في قرية بالشام في مَعَان من أرض البلقاء ، يقال لها مؤْتَة ، بقيادة أبيه زيد ، وكان سنه ثماني عشرة سنة • في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ضد جيش هرقل في مائة ألف من الروم • فتقاتل الجيشان قتالاً عنيفاً ، حتى سقط قادة عظام ثلاث : وهم زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، ثم أخذ الراية سيف الله خالد بن الوليد ، باختيار المسلمين ، فأحدث تغييراً في أجنحة الجيش وقلبه ومؤخرته ، فقال النبي ــ وهو في المدينة حينئذ ــ : الآن حمي الوطيس •

فأوهم خالد بهذا التغيير الروم بمجيء مدد من المدينة ، ففزع العدو ، وأحجموا عن المهاجمة ، وسرهم أن المسلمين لم يبتدروهم بالقتال ، فانحاز خالد بالمسلمين ، وجعل ينسحب بالجيش تدريجياً حتى بلغ به المدينة (١) .

عن قيس بن أبي حازم أن النبي ﷺ حين بلغه أن الراية صارت إلى خالد بن الوليد ، قال : فهلاَّ إلى رجل قتل أبوه ، يعني أسامة بن زيد(٢) .

وتابع أسامة القتال بعد استشهاد أبيه مع القادة الثلاثة ، وعاد إلى المدينة تاركاً جسده الطاهر على حدود الشام ، موارىً في قبور الشهداء في قرية المزار قرب مؤتة ، راكباً جواده الذي استُشْهد عليه . عطر الله ثراه مع هؤلاء الشهداء ، فهم الذين ضَحَّوْا في سبيل الله والدين والأمة ، وأعطوا الدرس الواضح للأبناء والأجيال ، وأسامة الابن البار سائر على الدَّرْب : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ،وما بدَّلوا تبديلاً » .

---

(١) راجع جوامع السيرة : ص ٢٢٠ وما بعدها ، سيرة ابن هشام : ٢/٣٧٣ وما بعدها .

(٢) الطبقات الكبرى : ٤/٦٢ .

رابعاً ــ يوم حنين سنة ٨ هـ (في شوال) :

خرج الرسول ﷺ بعد فتح مكة سنة ثمان من الهجرة في اثني عشر ألف مقاتل ، للقاء هوازن وثقيف بزعامة مالك بن عوف النَّصْري ، الذين جاؤوا يريدون القضاء على المسلمين ، فالتقى الجيشان في وادي حُنَيْن بين مكة والطائف ، على بُعْد ثلاث ليال من مكة . وأُعجب المسلمون بكثرتهم حتى قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة .

وحين انهزم المسلمون ، ثبت مع رسول الله أسامة بن زيد مع العباس عم الرسول ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه ، وستةٍ آخرين هم أبو بكر وعمر ، وعلي والفضل بن العباس ، وجعفر بن أبي سفيان ، وقُثَم بن العباس ، وجماعة من غيرهم[1] .

وبهذا الثبات والدفاع المستميت تحقق النصر المؤزر للمسلمين ، وغنموا مغانم كثيرة ، بعد أن قتل سبعون من ثقيف وحدها ، كما قتل دريد بن الصِّمة سيد بني جُشَم من هوازن ، واستُشهد عدد من المسلمين ، فرحمهم الله تعالى ، ورضي عمن بقي على قيد الحياة كأسامة ، لمعارك أخرى ، وحروب شنها الأعداء على المسلمين .

---

(١) جوامع السيرة : ص ٢٣٦ وما بعدها . سيرة ابن هشام : ٤٣٧/٢ وما بعدها .

خامساً ـ بَعْث أسامة سنة ١١ هـ لأخذ الثأر وقتال الروم :

تابع الروم اعتداءاتهم على المسلمين وحدود الاسلام بعد غزوة مؤتة .

فبعد حجة الوداع التي حجها النبي ﷺ في مائة ألف أو يزيدون في السنة العاشرة ، وبعد المحرم وصفر من السنة الحادية عشرة ، جهز عليه السلام جيشاً إلى الشام ، وجعل قائده أسامة ابن زيد ، وكان قد رشحه للقيادة ، كما لاحظنا في موقعة مؤتة ، بعد أن علم النبي بقيادة خالد . وكان عمره دون العشرين ، قيل : وهو ابن ١٩ سنة ، وقيل : وهو ابن ١٨ سنة[١] .

وكفاءة أسامة لهذه القيادة أمر مقرر ثابت في تقدير النبي ﷺ . روى ابن أبي شيبة عن جَبَلَة : أنه كان رسول الله ﷺ إذا لم يغز ، أعطى سلاحه علياً أو أسامة[٢] .

وقال عبد الله بن عمر : بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن بعض الناس في إمارته ، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبلُ ، وايْمُ الله ، إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمِنْ أحب الناس إليَّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده[٣] .

---

(١) تهذيب التهذيب : ٢٠٨/١ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٦/٢ .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي راجع الطبقات الكبرى : ٦٥/٤ ، جامع الأصول : ٢٦/١٠ .

كان في إمرة أسامة المهاجرون الأولون وجُل الأنصار ، في جيش عدده ثلاثة آلاف ، وفيهم ألف فرس ، ومنهم عمر ، وسعد ابن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وغيرهم من كبار الصحابة [1] .

وأمره النبي أن يوطىء الخيل تُخوم « البلقاء » وقلعة « الدّروم » القريبة من غزة من أرض فلسطين ، وأن يشن الغارة على مؤتة وأبنى وآبل الزيت ، من مشارف الشام في أرض الأردن [2] .

وروى الامام أحمد عن أسامة بن زيد ، قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قرية يقال لها : أُبْنى[3] ، فقال : ائتها صباحاً ، ثم حرِّق .

---

(١)الطبقات الكبرى : ٦٨/٤ ، الإصابة : ٢٩/١ . أسد الغابة: ٦٦/١ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٠/١ ، ١٢٣ ، ٣٩٢/٢ ، البداية والنهاية :٣٠٥/٦ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٦٠٦/٢ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٥/١ وما بعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٧/٤ ، تاريخ الطبري : ١٨٨/٣ ، حياة الصحابة : ٦٢٨/١ .

(٣) أبنى بوزن حبلى : اسم موضع من فلسطين بين عَسقلان والرملة ويقال لها أيضاً : يبنى ، بالياء .

وكان خروج أسامة إلى أهل أبنى ــ وهي أرض السراة من ناحية البلقاء ــ يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة ١١هـ[١].

وروى الزهري عن أسامة : أن رسول الله ﷺ بعثه إلى الشام ، وأمره أن يغير على « أبنى » صباحاً ، ثم يحرّق .

ورواه الإمام أحمد بلفظ أتم وهو : أن النبي ﷺ كان وجّه أسامة ، فقبض عليه الصلاة والسلام ، فسأله أبو بكر رضي الله عنه : ما الذي عهد إليك ؟ فقال : عهد إلي أن أغير على أُبْنى صباحاً ، ثم أحرّق[٢] .

وقال النبي ﷺ بعد أن عقد لأسامة لواءً بيده[٣] : اغز بسم الله ، في سبيل الله ، من كفر بالله ، فقاتل من كفر بالله ، اغزوا، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا تمنوا لقاء العدو ، فإنكم لاتدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا : اللهم

---

(١) الطبقات الكبرى : ١٩٠/٢ .

(٢) ورواه أبو يعلى الموصلي ، وزاد : ولم يتوجه أسامة حتى قبض النبي ﷺ . ورواه أبو نعيم ،والبيهقي . وهو حديث غريب (تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٦/١ ،مسند أحمد : ٢٠٥/٥ ،٢٠٩، الطبقات الكبرى : ٦٦/٤) .

(٣) الطبقات الكبرى : ١٩٠/٢ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٠/١ .

اكفناهم واكفف بأسهم عنـا ، فإن لقيتموهم قد أجلبوا (١) ، وصبحوا ، فعليكم بالسكينة والصمت ، ولا تتنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم ، وقولوا : اللهم نحن عبادك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تغلبهم أنت ، واعلموا أن الجنة تحت البارقة (٢) .

ولما أصبح رسول الله ﷺ من الغد يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر ، دعا أسامة بن زيد ، فقال : يا أسامة ، سر على اسم الله وبركته ، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحاً على أهل أبنى ، وحرق عليهم ، وأسرع السير بسبق الخبر ، فإن أظفرك الله ، فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدم العيون أمامك والطلائع (٣) .

نقد المنافقين إمرة أسامة :

اشتد انتقاد المنافقين قيادة أسامة وأكثروا في تأميره ، حتى بلغ الخبر النبي ﷺ ، فخرج عاصباً رأسه من الصداع ، واهتم لذلك الأمر ، ولبشارة أريها في بيت عائشة ، وقال : إني أُريت البارحة فيما يرى النائم في عضديّ سوارين من ذهب ، فكرهتهما

---

(١) أي تجمعوا .

(٢) أي السيوف .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١١٩ وما بعدها .

فنفختهما فطارا ، فأوّلتهما هذين الكذابين : صاحب اليمامة ، وصاحب اليمن ـــ أي أن هذا إخبار عن هزيمة من ادعى النبوة ، وهو مسيلمة الكذاب باليمامة ، والأسود العَنْسي باليمن[1] ـــ .

وقد بلغني أن أقواماً يقولون في إمرة أسامة ، ولعمري لئن قالوا في إمارته ، لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله ، ولئن كان أبوه لخليقاً لها ، وإنه لها لخليق ، فأنفذوا بعث أسامة .

وقال : لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد[2] .

معسكر الجيش :

خرج أسامة ، فضرب بالجُرْف[3] ، وجعل الناس يأخذون بالخروج (أي بالالتحاق بالجيش)، فيخرج من فرغ من حاجته إلى معسكره ، ومن لم يقض حاجته ، فهو على فراغ ، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا انتدب في تلك الغزوة .

فقال رجال من المهاجرين ـــ وكان أشدهم في ذلك قولاً عيَّاش بن أبي ربيعة رضي الله عنه ـــ : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟!

فكثرت القالة في ذلك .

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨٨/٣ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٦/١ ، تاريخ الطبري : ١٨٨/٣ .

(٣) اسم موضع قرب المدينة .

فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ذلك القول ، فردّه على من تكلم به ؛ وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقول من قال ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، وقد عصب على رأسه بعصابة ، وعليه قطيفة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ! ثم قال :

أما بعد ، أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ؟ فوالله ، لئن طعنتم في إمارتي أسامة ، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله .

« وايْمُ الله ! إن كان للإمارة لخليقاً ، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة ؛ وإن كان لأحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن أحبّ الناس إلي ، إنهما لمخيّلان(١) لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم » (٢) .

وهكذا توافق في توجيه النقد لتأمير أسامة : المنافقون وبعض المهاجرين ، ثم أعلن بعض الأنصار انضمامهم لهذا النقد بعد وفاة النبي ﷺ ، كما سنوضح . والرسول ﷺ يؤكد للناس جميعاً أن أسامة كأبيه أهل للقيادة ، وجدير بالإمارة ،ويوصيهم في مرض موته بقوله : « أنفدوا بَعْثَ أسامة » .

---

(١) أي مَظِنَّتان لكل خير .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٠/١ ، الطبقات الكبرى : ٦٦/٤ ، حياة الصحابة : ٦٢٧/١ ومابعدها .

مرض النبي عليه الصلاة والسلام :

بينما كان الجيش يتجهز ، ويتأهب الناس لغزو الشام ، اشتكى رسول الله ﷺ ، واشتد عليه الصداع والمرض في يوم السبت لعشر ليال خلون من ربيع الاول سنة ١١ هـ فتوقف سير الجيش ، انتظاراً لمعرفة حال رسول الله ﷺ .

وجاء المسلمون الذين سيخرجون مع أسامة ، يودعون رسول الله ﷺ ، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ورسول الله يقول : « أنفذوا بعث أسامة » ، ويؤكد النبي مقالته ، كلما حدثه متحدث في شأن بعث أسامة[١] .

دعاء النبي لأسامة :

ثم عاد الناس إلى المعسكر ليلة الأحد ، ونزل أسامة يوم الأحد ،ورسول الله ﷺ ثقيل مَغْمور ،وهو اليوم الذي لدّوه[٢] فيه . فدخل على رسول الله ﷺ ، وعيناه تهملان ، وعنده العباس، والنساء حوله ، فطأطأ عليه أسامة ، فقبّله ــ ورسول الله ﷺ لايتكلم ــ فجعل يرفع يديه إلى السماء ، ويصبّهما على أسامة .

قال أسامة رضي الله عنه : فأعرف أنه كان يدعو لي .

---

(١) وهذا البعث ليس غزوة مؤتة (أسد الغابة : ١/٦٦) .

(٢) لَدّوه : أي سقوه في حال المرض من الأدوية في أحد شقي الفم .

قال أسامة : فرجعت إلى معسكري . فلما أصبح يوم الاثنين ، غدا من معسكره ، وأصبح رسول الله ﷺ مُفيقاً [(١)] .

فجاءه أسامة فقال : « اغدُ على بركة الله » فودعه أسامة ، ورسول الله ﷺ مفيق،وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحته [(٢)].

وركب أسامة إلى معسكره ، وصاح في أصحابه باللحوق إلى العسكر ، فانتهى إلى معسكره ، ونزل ، وأمر الناس بالرحيل وقد مَتَع [(٣)] النهار .

وبينا أسامة يريد أن يركب من الجُرْف ، أتاه رسول أم أيمن – وهي أمه رضي الله عنها – يخبره أن رسول الله ﷺ يموت . فأقبل أسامة إلى المدينة ، ومعه عمر وأبو عبيدة ، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت . فتوفي عليه السلام حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ١١ هـ .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل

---

(١) اي رجعت إليه الصحة ، والحديث رواه الترمذي عن اسامة (جامع الأصول : ٢٦/١٠) .

(٢) حياة الصحابة : ٦٢٩/١ ومابعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٨/٤ ، منتخب كنز العمال : ١٣٦/٥ ، مسند احمد : ٢٠١/٥ .

(٣) اي طال وامتد وتعالى ، والمراد هنا : هو المعنى الأخير .

بريدة بن الحصيب رضي الله عنه بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله فغرزه أي ركزه[1] .

موقف أبي بكر من تنفيذ جيش أسامة بن زيد :

لما تمت البيعة لأبي بكر بعد اجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة[2] ، بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، أمر أبو بكر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ، ولا يحله أبداً حتى يغزو بهم أسامة . لكن أبابكر اصطدم فور الوفاة بأعظم فتنة في الاسلام بعد الرسول وهي ردة العرب[3] وامتناع آخرين من أداء الزكاة إليه ، وعدم بقاء مقام لصلاة الجمعة في بلد سوى مكة والمدينة والطائف وجواثا في البحرين .

ولما فرغ الناس من البيعة واطمأنوا،أَمَرَ أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة إلى الشام قائلاً له : امض لوجهك الذي بعثك له رسول الله ﷺ ، فخرج أسامة من الجرف في غرة ربيع الآخر سنة ١١ هـ.

لكن كثيراً من الناس (مهاجرين وأنصاراً) ، رأوا ألا ينفذ جيش أسامة ، للحاجة إليه فيما هو أهم ، لأن ما جهز بسببه في حال السلامة وكان عمر بن الخطاب من جملة من أشار بذلك . وقال

---

(١) حياة الصحابة : ٦٣٠/١ .

(٢) انظر قصة السقيفة في حياة الصحابة : ٦٠٨/١ .

(٣) البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ .

هو وغيره لأبي بكر : أمسك أسامة وبعثه ، فإنا نخشى أن تميل علينا العرب إذا سمعوا بوفاة الرسول ﷺ[1] .

وقالت الأنصار لعمر الذي طلب إليه أن يكلم أبا بكر في ذلك : فإن أبى إلا أن نمضي ، فأبلغه عنا ، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة .

فجاء عمر بأمر أسامة ، فأتى أبا بكر ، فأخبره بما قال أسامة الذي وقف بالناس ، وكان أسامة قد قال لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله ، فاستأذنه، يأذن لي ، فليرجع الناس، فإن معي وجوههم وحدّهم[2] ولا آمن على خليفة رسول الله[3] .

فامتنع الصديق من ذلك وأبي أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة ، وقال كلمته الرائعة المشهورة :

والله ، لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ، ولو أن الطير تَخْطَفنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة ، وآمر الحرس يكونون حول المدينة[4] .

---

(١) البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ ، حياة الصحابة : ٦٣١/١ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٨/١ .

(٢) المراد من الحدّ هنا : الشوكة والقوة .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٧/١ ، حياة الصحابة : ٦٣٤/١ .

(٤) البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ .

وكان مما قاله الصدِّيق أيضاً في هذا الموقف :

لو اختطفتني الكلاب والذئاب ، لم أردّ قضاءً قضاه رسول الله ﷺ ؛ كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول : أنفذوا جيش أسامة . والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني ، لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته . والذي نفسي بيده ! لأن تميل علي العرب أحب إلي من أن أحبس جيشاً بعثه رسول الله ﷺ .

فقال عمر : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة .

فوثب أبو بكر ، وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر ، وقال مُغْضَباً :

ثَكِلَتْكَ أمك ، وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنْزِعَه ؟!

فرجع عمر إلى الناس ، فسألوه : ما صنعت ؟ فقال : امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت في سبيلكم اليوم من خليفة رسول الله !![1] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٧/١ ، حياة الصحابة : ٦٣٢/١ ، ٦٣٦ ، البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ .

تشييع الخليفة أبي بكر ماشياً لأسامة القائد راكباً :

ولما تحرك الجيش نحو مهمته السامية إلى الشام ، بقيادة القائد الفتى ، قام أبو بكر نفسه بتشييع الجيش مشجعاً لهم ، وهو ماشٍ ، وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر .

فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبَنَّ أو لأنزلنَّ . فقال أبو بكر : والله لا تنزل ، ووالله لا أركبُ ، وما عليَّ أن أغبِّر قدمي ساعة في سبيل الله ، فإن للغازي بكل خُطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، ويمحا عنه سبعمائة خطيئة .

ثم قال لأسامة : أستودع الله دينك ، وأماتتك وخواتيم عملك ، وأوصيك بإنفاذ ما أمرك به رسول الله ، امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به ، ثم اغز حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة ، فإن الله سيكفي ماتركت، ولكن إن رأيت أن تُعينني بعمر بن الخطاب فإنه ذو رأي ومناصح للاسلام ، فافعل . فأذن له بالبقاء(١) .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١١٧ ، ١١٩ ، الطبقات الكبرى : ٤/٦٧ ، البداية والنهاية : ٦/٣٠٥ ، حياة الصحابة : ١/٦٣٣ ، ٦٣٥ ومابعدها .

وصية ابي بكر التاريخية المشهورة لأسامة بأسمى مبـادىء المدنية والحضارة :

أوصى أبو بكر الصديق أسامة وجيشه بعشر وصايا ، تعد أرقى وأسمى ماتوصلت إليه الانسانية مـن مبـادىء الحرب ، للحفاظ على أصول المدنية والحضارة ، وحصر نطاق القتال في المحاربين ، وحرمة التعرض للمدنيين من امرأة وطفـل ، وشيخ كبير ، وراهب ، والحفاظ على الأشجار ، إلا للضرورات الحربية.

فقال : يا أيها الناس قفوا ، أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني: لاتخونوا ، ولاتغلّوا [١] ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تنلفوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقـوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على أقوام يأتونكم بآنية فيهـا أنواع الطعام فإذا أكلتم منهـا شيئاً بعدما يبقى بقية ، فاذكروا اسم الله عليهـا . وسوف تلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيوف خفقـاً . اندفعوا باسم الله ، أفناكم الله [٢] بالطعن والطاعون [٣] .

---

(١) أي لا تسرقوا من الغنيمة قبل التخميس .

(٢) أي إن لم تقاتلوا في سبيل الله أفناكم الله ... الخ .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٧/١ ومابعدها .

وذكر الإمام مالك في الموطأ (١) هذه الوصية ليزيد بن أبي سفيان ، ولفظها ما يأتي : عن يحيى بن سعيد : أن أبا بكر الصديق بعث جيوشاً إلى الشام ، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان(٢) ، وكان أمير ربع من تلك الأرباع ، فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر : إما أن تَرْكبَ ، وإما أن أنزل ، فقال أبو بكر : ما أنت بنازل ، وما أنا براكب ، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ، ثم قال له :

إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حَبسوا أنفسهم ، فذَرْهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له ، وستجد قوماً فَحصُوا عن أواسط رؤوسهم من الشعر ، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف ، وإني موصيك بعشر :

لا تقتُلنّ امرأة ، ولا صبياً ، ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعنّ شجراً مُثْمراً ، ولا تُخَرِبنّ عامراً ، ولا تعقِرنّ شاة ولا بعيراً إلا لمَأْكلَة ، ولا تَحْرِقنّ نخلاً ، ولا تُغَرِقَنّه ، ولا تَغْلُل ، ولا تجبُن .

ولعل الحادثة تكررت ، لكن الأصح تاريخياً أنها حدثت مع أسامة ، وقد روى مالك الحادثة الثانية بلفظ « زعموا » .

---

(١) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك : ٢/٦ .

(٢) من المعلوم أن أبا بكر بعد انتصاره على المرتدين ، بعث أبا عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد ابن أبي سفيان ، امراء إلى الشام (جوامع السيرة : ص٣٤١) .

وأضاف الإمام مالك : أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامل من عـمّاله : أنـه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سَرية يقول لهم : اغزُوا باسم الله ، في سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تَغُلُّوا ، ولا تَغْدِروا ، ولا تُمثِّلوا ، ولا تقتلوا وليداً، وقل ذلك لجيوشك وسراياك إن شاء الله، والسلام عليك[1].

وهذا يبين مصدر وصية أبي بكر التي تعد أروع وثيقة في الحرب والحياد ، وحفظ كرامة الإنسان ، قبل أن تظهر هـذه المبادىء في عالم الغرب في القرن العشرين .

نجاح اسامة في مهمته :

لقد حقق هذا الجيش الصغير بقيادة أسامة نجاحاً باهراً ، كما قدّر الرسول ﷺ قبيل وفاته ، فكان خروجه بعد الوفاة من أكبر المصالح الاسلامية في داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وكان أسامة في تخطيطه وتنفيذه المهمة المطلوبة وخوضه المعركة مظفراً موفقـاً .

سار أسامة بجيشه ، ونفذ كل ما أمر به رسول الله ﷺ ، فأوطأ خيل المسلمين « تخوم البلقاء » و « قلعة الداروم » في

---

(١) تنوير الحوالك : ٧/٢ .

فلسطين ، وشن الغــارة على « أبنى » فأحرق وخرّب بقــدر ما تقتضيه ضرورة الحرب ، وقال لأصحابه قبل الهجوم[1] :

اجعلوها غــارة ، ولا تمعنوا في الطلب ، ولا تفترقوا ، واجتمعوا ، وأخفوا الصوت ، واذكروا اســم الله في أنفسكم ، وجردوا سيوفكم ، وضعوها فيمن أشهروا عليكم السلاح •

ثم رفع عليهم الغارة ، فما نبح كلب ، ولا تحرك أحد ، ولا شعروا إلا بالقوم قد شنوا عليهم الغارة ، ينادون بشعارهم : يا منصور أمت •

حوار بين بريدة وأسامة حول الإنذار الحربي :

وفي قضية مباغتة العدو دون إنذار سابق ـ وهو أمر جائز شرعاً وفي القانون الدولي الحديث[2] ـ حدث حوار بين بريدة وأسامة [3] •

فقال بُريدة بن الحُصَيب لأسامــة : يا أبا محمد ، إني شهدت رسول الله ﷺ يوصي أباك أن يدعوهم إلى الاسلام ، فإن أطاعوه خيرهم ، فإن أحبّوا أن يقيموا في ديارهم ، ويكونوا

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٣/١ •

(٢) راجع كتابنا « آثار الحرب في الفقه الاسلامي » ـ دراسة مقارنة •

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٣/١ •

كأعوان المسلمين ، فلا شيء لهم في الفيء ولا في الغنيمة ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، وإن تحولوا إلى دار الاسلام ، كان لهم ماللمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين •

فقال أسامة : هكذا وصية رسول الله لأبي ، ولكنه أمرني ـــ وهو آخر عهده إلي ـــ أن أسرع المشي ، وأسبق الأخبار ، وأن أشن الغارة عليهم بغير دعاء (أي إنذار) ، فأحرّق وأخرّب •

فقال بريدة : سمعاً وطاعة لأمر رسول رسول الله ﷺ (١) •

ثأر أسامة لأبيه :

وكان أسامة قد خرج على فرس أبيه التي قتل عليها أبوه يوم مؤتة ، وكانت تدعى : « سبحة » ، وقتل قاتل أبيه في الغارة • كما أخبره به بعض أهل أبنى •

عودة الجيش واستقبال الخليفة والمسلمين له :

ثم عاد أسامة بجيشه سالماً غانماً إلى المدينة ، بعد غياب خمسة وثلاثين يوماً ، سار عشرين في بدأته ، وخمس عشرة في رجعته • وكان أسامة أرسل بشيره من وادي القرى بسلامة

---

(١) لاحظ مدى وعي وعقلية أسامة لبنود مهمته الدقيقة ، ولاحظ ايضاً مدى طاعة بريدة وغيره لأوامر الرسول عليه السلام ، كما أنه يجدر الانتباه إلى هذا النقاش الموضوعي الهادىء لتجلية الأمر والبحث في كيفية تطبيق أحكام الشريعة .

المسلمين ، وأنهم أغاروا على العدو ، فأصابوهم ، فلما سمع المسلمون بقدومهم ، خرج أبو بكر مع المهاجرين ، وخرج أهل المدينة ، حتى العواتق (أي الشابات) ، وسُرّوا بسلامة أسامة ومن معه من المسلمين ، ودخل يومئذ على فرسه « سبحة » كأنما خرج من ذي خشب (موضع) ، عليه الدرع ، واللواء أمامه يحمله بُرَيْدة ، حتى انتهى به إلى المسجد النبوي ، فدخل ، فصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومعه اللواء ، فمازال معقوداً في بيته حتى توفي[1] .

وفي هذا الاستقبال الحافل ردد الناس قول النبي ﷺ في أسامة : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

أهم آثار هذا البعث :

وقد حقق أسامة بهذا النصر مجداً سامقاً ، إذ هاجم الامبراطورية الرومانية في عقر دارها ، وجرّأ المسلمين العرب على مهاجمتها ، ونزع هيبة الروم من قلوب المسلمين ، ومهد الطريق أمامهم لفتح بلاد الشام ومصر .

ولعل أروع أسباب النصر : هو توقيت البعث بعد الوفاة ، إذ لم يخطر ببال أحد المبادرة بمثل هذا الهجوم في وقت شغل

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٤/١ ، حياة الصحابة : ٦٣١/١ .

فيه المسلمون بوفاة نبيهم ، وبردّة العرب ، وباستفحال خطر مانعي الزكاة .

وبرهان ذلك أن خبر نَعْي رسول الله ، وإغارة أسامة في ناحية أرضه ، جاء في وقت واحد ، وبخبر واحد ، فقالت الروم : ما بال هؤلاء يموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا .

والجدير بالذكر أن الجيش عاد سالماً ، يحمل غنائم كثيرة .

قال عروة : فما رئي جيش كان أسلم وأغنم من ذلك الجيش[1] .

وكذلك أحدث هذا الجيش رهبة بين العرب في الجزيرة العربية ، فما إن كان أسامة يمرّ بقبيل يريدون الارتداد ، إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة ، ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم[2] .

وكان لهذا الجيش فضل كبير في تثبيت الاسلام ، لأنه استطاع هزيمة الروم وقتلهم ، ثم رجعوا سالمين ، فثبت الناس على الاسلام[3] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٤/٢ .

(٢) المرجع السابق : ١٢٥/١ ، البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ .

(٣) المرجعان السابقان .

والقصد الأول كان مجرد إرهاب الروم ، لأن أسامة مضى حتى أغار عليهم ، ثم أمرهم أن يُعظّموا الجراحة ، حتى يرهبوهم ثم رجعوا وقد سلموا وغنموا (١) .

وبه تجلت عبقرية أبي بكر ، ومدى حزمه ووعيه وعمق فكرته وإصابة رأيه ، قال أبو هريرة : والله الذي لا إله إلا هو ، لولا أن أبا بكر استخلف ، ما عُبد الله ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة . فقيل له : يا أبا هريرة ما تقول ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام ، فلما نزل بذي خشب ، قبض النبي ﷺ ، وارتدت العرب حول المدينة ، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا بكر ، رُدّ هؤلاء ، توجههم إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟! فقال : والذي لا إله إلا هو ، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ مارددت جيشاً ، وجهه رسول الله ، ولا حللت لواء عقده رسول الله (٢) .

وهكذا بحزم أبي بكر وصلابته في تنفيذ أمر النبي ﷺ بإنفاذ جيش أسامة ، تحققت آثار بعيدة في تاريخ الاسلام ، وكان ذلك من أعظم المصالح للاسلام وللمسلمين : على الصعيد

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٤/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦٧/٤ .

(٢) البداية والنهاية : ٣٠٥/٦ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٤/١ وما بعدها .

الداخلي في الجزيرة العربية ، إذ أوقف تنفيذ إرسال الجيش ردة العرب ، وتثبت الاسلام في كثير من المواطن مثل جُهينة وغيرها من قضاعة • وعلى الصعيد الخارجي إذ أرهب المسلمون دولـة الرومان ، واستبعدوا فكرة مهاجمة المسلمين في ديارهم ، انتهازاً لفرصة موت نبيهم وقائدهم •

ولا شك بأن تلك النتائج ما هي الا أثر واضح من مغيبات النبوة ، واستطلاع وجه المستقبل المنتظر ، وهو فضل من الله عظيم ، ونعمة كبرى تستحق الشكر والتقدير •

مشاركة أسامة في محاربة المرتدين :

وقد استفيد من تجارب أسامة الحربية ، فوجهه أبو بكر عقب عودته من الشام لقتال المرتدين في اليمامة في أثر خالد بن الوليد ، فلحق به ، وشاركه في القتال حتى النصر[١] •

* * *

(١) البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي : ١٥٢/٥ .

الفصل الخامس

مَنزلتهُ عِنـدَ النّبيّ

ومكانته عند الصحابة

منزلته عند النبي عليه الصلاة والسلام :

احتل أسامة في نفس النبي ﷺ مكانة فريدة ، فكان محبوباً له ، وكان يسمى « حب رسول الله »[1] ، حتى أصبح مستشاراً عند النبي ، وشفيعاً مجاب الطلب مقبول الشفاعة عنده عليه السلام كما بينا سابقاً ، وهو الذي نصبه قائداً عقد له لواءً له في مرضه الذي مات فيه ، وبرز به بين الناس[2] ، وقد أمر أبو بكر بُريدة ابن الحُصَيب بعد وفاة النبي أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ، ولا يَحُلّه أبداً حتى يغزو بهم أسامة . فقال بريدة : فخرجت باللواء حتى انتهيت به إلى بيت أسامة ، ثم خرجت به إلى الشام

---

(١) أسد الغابة : ١/٦٤ .

(٢) انظر القصة في رواية الترمذي عن أسامة ، وفيها دعاء النبي لأسامة في مرض موته (جامع الأصول : ١٠/٢٦) .

معقوداً مع أسامة ، ثم رجعت به إلى بيت أسامة ، فما زال معقوداً في بيته حتى توفي[1] .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن بعض الناس في إمارته ، فقال رسول الله ﷺ : إن تَطْعَنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وايْمُ الله ، إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحَبِّ الناس إلي . وإن هذا لمن أحبِّ الناس إليَّ بعده » [2] .

مكانته بين الصحابة :

سرى أثر الحب النبوي لأسامة بين الصحابة ، فأحبوه وعظموه ، لأن النبي ﷺ أوصاهم به فقال : « إني لأرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً »[3] .

وكان على حداثة سِنه مهيباً مسموع الكلمة ، يجتمع مع كبار الصحابة ، كما كان عبد الله بن عباس [حبر الأمة وترجمان القرآن ، والذي كان ابن ثلاث عشرة سنة يوم وفاة الرسول ﷺ]

---

(١) حياة الصحابة : ١/٦٣٠ وما بعدها .

(٢) جامع الأصول : ١٠/٢٦ .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٤ ، الطبقات الكبرى : ٤/٦٧ .

ذا منزلة عالية بين شيوخ الصحابة الكرام ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحبّه ويُدْنيه ويُقرِّبه ويشاوره مع أجلّة الصحابة ، ويقول عنه : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان قؤول ، وقلب عقول[1] .

وكان عمر نفسه يجل أسامة ، فقد فضله في العطاء على ابنه عبد الله ، لأن أباه زيداً كان أحب إلى رسول الله من عمر ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله من عبد الله بن عمر ، فآثر حِبَّ رسول الله ﷺ على حبّ نفسه[2] .

قال عبد الله بن دينار : كان عمر بن الخطاب إذا رأى أسامة ابن زيد ، قال : السلام عليك أيها الأمير ، فيقول أسامة : غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، تقول لي هذا ؟ قال : فكان يقول له : لا أزال أدعوك ما عشت ، أيها الأمير ، مات رسول الله ﷺ ، وأنت علي أمير[3] .

وذكر المؤرخون الثقات أن عمر كان يقول :

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٩٣٥/٣ .

(٢) جامع الأصول : ٢٧/١٠ وما بعدها ، منتخب كنز العمال: ١٣٥/٥ ، الإصابة : ٣١/١ .

(٣) رواه أبو يعلى وابن حبان والبيهقي في السنن وأحمد في المسند (منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥) .

ما كنت لأحيي أحداً بالإمارة غير أسامة ، لأن رسول الله ﷺ قبض ، وهو أمير[1] .

ويروى أن عمر لم يلق أسامة قط إلا قال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، أمير أمَّره رسول الله ، ثم لم ينزعه ، حتى مات[2] .

ولقد أثبت أسامة في قيادة جيشه إلى الشام أنه ذو جَلَد على تحمل المشاق ، وذو شجاعة فائقة ، وعقيدة راسخة ، وعقلية راجحة متبصرة بالأحداث والنتائج ، مما أكسبه سمعة عالية ، وصيتاً وشهرة كبيرة بين الصحابة ، فقدروه وأحبوه ولمسوا بأنفسهم مدى إصابة الحق في اختيار النبي له للإمارة .

وكان عثمان رضي الله عنه يحب أسامة ويقربه إليه ويثق به ، وقد أرسله ــ حينما اشتدت عليه وطأة المعارضة ــ رسولاً إلى البصرة ، كما أرسل غيره إلى الكوفة ومصر والشام لمعرفة أسباب الاضطراب .

* * *

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٤/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦٧/٤ .

(٢) المرجع السابق : ٣٩٥/٢ .

الفصل السادس

اعتزاله الفتنة ومكانته العلمية

اعتزاله الفتنة :

اعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان ، إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية[1] . قال علي بن خشرم : قلت لوكيع : مَنْ سلِم من الفتنة ؟ قال : أما المعروفون من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأربعة : سعد بن مالك أي ابن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مَسْلَمة ، وأسامة بن زيد ، واختلط سائرهم . قال : ولم يشهد أمرَهم من التابعين أربعة : الربيع بن خُثيم ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد ، وأبو عبد الرحمن السلمي[2] .

إلا أن أسامة كانت عاطفته مع الحق والعدل ، مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهو بالرغم من أنه لم يبايع علياً ،

---

(١) الإصابة : ١/٣١ .

(٢) الاستيعاب : ١/٧٧ .

ولا شهد معه شيئاً من حروبه ، إلا أنه أرسل له : إنك لو كنت في شِدْق الأسد ، لأحببتُ أن أكون معك فيه ، ولكنّ هذا أمر لم أره[1]. وذلك شبيه بقول عبد الله بن عمر : ما آسى على شيء ، كما آسى أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه[2] .

والسبب في اعتزاله الفتنة : هو التزامه الشديد بألا يقاتل من يقول : « لا إله إلا الله » ومعاهدته نفسه على ذلك ، بعد أن تورط في قتل نفس ، قالت تلك الكلمة .

قال أسامة لعلي : لو أدخلت يدك في فم تِنّين[3] ، لأدخلت يدي معها ، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله .

والقصة كما ذكرناها سابقاً : أن أسامة أدرك كافراً في غزاة، هو ورجل من الأنصار ، فلما شهر عليه السلاح ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله ؛ فما برحا حتى قتلاه ، فلما قدم أسامة على رسول الله ﷺ أخبره ذلك الخبر ، فقال : يا أسامة ، من لك بلا إله إلا الله ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما قالها تعوذاً من القتل ، فقال :

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٩/٢ ، الطبقات الكبرى : ٧١/٤ ، والشدق : جانب الفم .

(٢) الاستيعاب : ٧٧/١ .

(٣) التنّين : ضرب من الحيات .

من لك يا أسامة بلا إله إلا الله ؟ فوالذي بعثه بالحق،مازال يرددها علي ، حتى وددت أن مامضى من إسلامي لم يكن ، وأني أسلمت يومئذ .

فقلت : أعطي الله عهداً أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله [1] .

وبه آثر أسامة ألا يتورط في الشبهات ، كما فعل بعض كبار الصحابة ، كما ذكرنا ، إذ كان الأمر على غاية من الخطورة ، من كثرة ما أشيع في بيئة المسلمين من فتن ودسائس ، ودبرت مؤامرات ، وحدثت اغتيالات لم تكن في صالح الاسلام ، وإنما كانت وبالاً عليه وعلى أهله .

مكانته العلمية :

كما كان أسامة قائداً حربياً فذاً ، كان عالماً بارعاً ، فقيهاً مفتياً مُحدِّثاً ـ راوي الحديث عن النبي ﷺ ، يقصده الناس صحابة وتابعين لسماع أحاديثه عن النبي ، ولمعرفة رأيه وفتواه في بعض المسائل،فقد عدّه ابن حزم من أصحاب الفتيا من الصحابة[2]

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير : ١/٦٥، الطبقات الكبرى : ٤/٦٩، مسند أحمد : ٥/٢٠٧

(٢) ملحق بجوامع السيرة ـ أصحاب الفتيا من الصحابة : ص ٣٢١ .

كما روى عن الرسول ﷺ ١٢٨ حديثاً [1] ، ذكر منها الإمام أحمد في مسند أسامة ٩٣ حديثاً ، ولكن بعضها مكرَّر [2] .

وقد روى عن أسامة من الصحابة : أبو هريرة وابن عباس، ومن كبار التابعين أبو عثمان النَّهدي ، وأبو وائل ، وجماعة آخرون . منهم ابناه الحسن ومحمد ، وكُرَيب ، وعمرو بن عثمان ابن عفان ، وعامر بن سعد ، وعروة بن الزبير وعبيد الله بن عُتبة، والحسن البصري ــ على خلاف فيه ــ ، والزِّبرقان بن عمرو بن أمية الضَّمري ، وقيل لم يلقه .

قال ابن المديني وأبو حاتم : إن الحسن البصري لم يسمع منه شيئاً [3] .

ومن أحاديثه التي كان بها أسامة مرجعاً فاصلاً بين خلافات الصحابة . ما رواه عطاء بن أبي رباح قال : قلت لأبي سعيد الخدري : أرأيت قول ابن عباس في الصرف [4] ؟ قال : قد زجرته ،

---

(١) ملحق بجوامع السيرة ـ أسماء الصحابة الرواة : ص٢٧٨ .

(٢) مسند احمد : ١٩٩/٥ ــ ٢١٠ .

(٣) الإصابة : ٣١/١ ، تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٠٨/١ ، الاستيعاب : ٧٧/١ .

(٤) ذهب ابن عباس وأسامة بن زيد وزيد بن أرقم والزبير وابن جبير وغيرهم إلى ان الربا المحرم فقط : هو ربا النسيئة ، ولا يحرم ربا الفضل (راجع كتابنا الفقه : ٤٦٥/١ ، ط ثانية) .

وسوف أزجره ، قال : ثم أتاه فقال لــه : أرأيت قولك ، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ ، أو شيء وجدته في كتاب الله ؟ قال : كلا ، أما رسول الله ﷺ ، فأنتم أعلم به ، وأما كتاب الله فلا أعلمه . ولكن حدثني أسامة بن زيد أن رسول لله ﷺ قال : إنما الربا في النسيئة(١) .

نماذج من أحاديث أسامة بن زيد :

تمتاز أحاديث أسامة أنها واردة في أصول الأحكام ، وتقرر مبادىء الاسلام العظمى في السياسة والحكم ، وعلاقة المسلمين بغيرهم ، وفي المعاملات والعبادات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي إقامــة الحدود ، والصــلاة ، والحرص على مبدأ التوحيد .

وسأختار نماذج من هذه الأحاديث من مسند أحمد ، وقد وردت تحت عنوان :

حديث أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ .

١ ـ حديثه في ربا النسيئة :

هذا الربا هو البيع نسيئة إلى أجل ، ثم الزيادة عند حلول الأجل . أو هو تأخير الدين في نظير الزيادة على مقداره الأصلي. ـ وهو ربا الجاهلية ـ أو هو تأخير قبض أحد البدلين في بيع المال

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٩ ، تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٢ .

الربوي بجنسه ؛ كبيع مد حنطة منجزاً بمد حنطة مؤجلاً ، سواء تساوى المقدار أو الكمية ، أم زاد المؤجل على المعجل .

وكان أسامة وابن عباس وزيد بن أرقم والزبير وابن جبير وغيرهم يرون أن الربا المحرم فقط : هو ربا النسيئة ، لما يرويه أسامة أن رسول الله ﷺ قال : لا ربا فيما كان يداً بيد ، قال يعني : إنما الربا في النَّساء . وفي لفظ : الربا في النسيئة ، أو : ليس الربا إلا في النسيئة . أو : لا ربا إلا في الدين ، أو قال : في النسيئة [1] .

وأما ربا الفضل ـ وهو زيادة أحد البدلين على الآخر في مبادلة المال الربوي بجنسه مناجزة ـ فليس في رأيهم بحرام .

والحقيقة أن ربا الفضل ثبت تحريمه بأحاديث كثيرة ، منها حديث صحيح رواه أبو سعيد الخدري وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والحنطة بالحنطة ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، والفضل ربا » .

لذا نقل جابر بن زيد أن ابن عباس رجع عن قوله ، ثم جاء إجماع التابعين بتحريم الربا بنوعيه .

---

(١) رواه الشيخان واحمد (مسند احمد : ٥/٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

وأما تأويل حديث « لا ربا إلا في النسيئة » فهو بيان الربا الأكمل الأعظم خطورة ، الأكثر وقوعاً ، الأشد عقوبة . أو أنه ورد مورد الجواب عن سؤال سابق ، فكأن الراوي سمع قول النبي ﷺ ولم يسمع ما تقدم من السؤال ، أو لم يهتم بنقله[1] .

٢ً – فتنة المرأة :

عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ماتركت بعدي فتنة أضرَّ على أمتي من النساء على الرجال »[2] .

٣ً – منع الإرث بسبب اختلاف الدِّين :

عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : « لايرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم »[3] .

٤ً – الحجر الصحي :

حدث أسامة سعداً أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض ، وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها »[4] .

---

(١) كتابنا « الفقه الاسلامي في أسلوبه الجديد » : ١/٤٦٥ – ٤٧٠ .

(٢) مسند أحمد : ٥/٢٠٠ ، ٢١٠ .

(٣) مسند أحمد : ٥/٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ .

(٤) المرجع السابق : ٥/٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب فإنها لاتمنع القدر ، ولكن لابد منها • وأما الأحاديث التي تقرر بطلان تأثير العدوى ، فمعناها تأثيرها بذاتها بدون تدخل الارادة الإلهية •

٥ً ـ تحديد اتجاه القبلة في الصلاة :

أخبر أسامة بن زيد أن النبي ﷺ لما دخل البيت ، دعا في نواحيه كلها ، ولم يصل فيه ، حتى خرج ، فلما خرج ، ركع ركعتين في قِبَل (أي ناحية) الكعبة ، وقال : هذه القبلة •

وهناك حديث آخر رواه أسامة نفسه أن رسول الله ﷺ صلى في البيت • فتعارض الحديثان[١] •

٦ً ـ النهي عن حب اليهود :

عن أسامة بن زيد ، قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه نعوده ، فقال له النبي ﷺ : « قد كنت أنهاك عن حب يهود » ، فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زُرَارة ، فمات[٢] •

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، هذا وإن جمهور العلماء يقدمون المثبت على النافي ، فيجيزون الصلاة داخل الكعبة (الوسيط في أصول الفقه للمؤلف : ص ٦٣٥ وما بعدها ط ثالثة) •

(٢) المرجع نفسه : ٥/٢٠١ •

٧ ـ جمع التاخير بين المغرب والعشاء في المزدلفة :

قال أسامة : جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بالمزدلفة[١] .

وهذا الحديث المبيح لهذا الجمع هو من نسك الحج عند الحنفية ، فلا يجوز في غيره من الأسفار . وأجاز جمهور الفقهاء كلاً من جمع التأخير والتقديم عملاً بهذا الحديث .

٨ ـ الصلاة في المقابر :

عن أسامة بن زيد قال : قال لي رسول الله ﷺ : أدْخِل عليَّ أصحابي ، فدخلوا عليه ، فكشف القناع ، ثم قال : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٢] .

٩ ـ تحريم التصوير واقتناء الكلاب :

قال أسامة بن زيد : دخلت على رسول الله ﷺ ، وعليه الكآبة ، فسألته : ماله ؟ فقال : لم يأتني جبريل منذ ثلاث . قال : فإذا جرو كلب بين بيوته ، فأمر به ، فقتل ، فبدا له جبريل عليه السلام ، فهشَّ[٣] إليه رسول الله ﷺ حين رآه ، فقال : لَمْ تأتني ؟ فقال : إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا تصاوير[٤] .

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٢ ، ٢١٠ .

(٢) المرجع نفسه : ٥/٢٠٤ .

(٣) هَشَّ يَهِش هشاشة : إذا خف إليه وارتاح له .

(٤) مسند أحمد : ٥/٢٠٣ .

١٠ ــ البكاء المباح على الميت :

عن أسامة بن زيد قال : أرسلتْ إلى رسول الله ﷺ بعض بناته أن صبياً ــ ابناً أو ابنة ــ قد احتضرت ، فاشْهدنا (أي احضرنا) ، قال : فأرسل إليها يَقْرَأ السلام ، ويقول : إن لله ما أخذ ، وما أعطى ، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى ، فلتصبر ، ولتحتسب ، فأرسلت تقسم عليه ، فقام وقمنا ، فرفع الصبي إلى حِجْر أو في حجر رسول الله ﷺ ، ونفسه تُقَعْقع (أي تضطرب وتتحرك) ، وفي القوم سعد بن عبادة ، وأبي ــ أحسب ــ ففاضت عينا رسول الله ﷺ ، فقال له سعد :

ما هذا يا رسول الله ؟

قال : « هذه رحمة يضعها الله قلوب من يشاء من عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »(١) .

١١ ــ أصحاب الجنة وأصحاب النار :

عن أسامة قال : قال رسول الله ﷺ : « قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجَد (الغنى) وقال يحيى بن سعيد وغيره : إلا أصحاب الجَد محبوسون ، إلا أصحاب النار فقد أمر بهم إلى النار .

وقمت على باب النار ، فإذا عامة من يدخلها النساء »(٢) .

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٤ ، ٢٠٥ وما بعدها ، ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق : ٥/٢٠٥ ، ٢٠٩ .

١٢ ـ مخالفة آمر المعروف وناهي المنكر قوله :

عن أبي وائل قال : قيل لأسامة : ألا تكلم عثمان ؟ قال : إنكم ترون أني لا أكلمه ألا أ ُسمعكم ، والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله ، لا أقول لرجل : إنك خير الناس ، وإن كان علي أميراً ، بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول . قالوا : وما سمعته يقول ؟

قال سمعته يقول : يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق به أقتابه (أمعاؤه) ، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه ، فيُطيف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان مالك ، ما أصابك ، ألم تكن تأمرنا بالمعروف ، وتنهانا عن المنكر؟

فقال : كنت آمركم بالمعروف ، ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه [١] .

١٣ ـ الحفاظ على صلاة الجماعة :

عن الزِّبْرقان : أن رهطاً من قريش ، مرَّ بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون ، فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى ، فقال : هي العصر .

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

فقام إليه رجلان منهم ، فسألاه ، فقال : هي الظهر ، ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد ، فسألاه ، فقال : هي الظهر ، إن رسول الله ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير[1] ، ولا يكون وراءه إلا الصف والصفان الناس في قائلتهم وفي تجارتهم ، فأنزل الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » قال : فقال رسول الله ﷺ : لينتهينّ رجال ، أو لأحرّقنّ بيوتهم[2] .

* * *

---

(١) الهجير : نصف النهار عند اشتداد الحر .

(٢) مسند أحمد : ٢٠٦/٥ .

خاتمة

أسامة بن زيد أحد الأبطال والعلماء البارزين من صحب نبي الله الذين سطروا بجهادهم وحكمتهم أنضر صفحات تاريخ الاسلام . فضائله كثيرة ، ومناقبه متعددة ، ومزاياه فريدة ، فهو الرائد الأول أو القدوة العالية في مهاجمة دولة الرومان العظمى بجيش صغير لايتجاوز الثلاثة آلاف ، فيهم ألف فرس ، ومنهم نخبة المهاجرين والأنصار .

فهو بحق رجل في أمة قدّر الله لها أن تبني أمجاداً سامقة ، وعزة عالية على أساس الفضيلة والتقوى والاستقامة في السيرة والسلوك ، وفي أثناء الحرب والسلام ، لا لشيء إلا لأمر واحد ، هو تصحيح عقيدة الناس ، وإعلاء كلمة الله والحق والعدل ، وإبراز جوهر معنى توحيد الإله ، وتجسيد معنى عبودية العباد لهذا الإله فيما يفعلون ، وفيما يستهدفون ، وإلى غاية حتمية لابد واردون لها ، ماثلون في محكمتها أمام الحاكم العادل القهار لإنصاف المظلومين ومكافأة الأبرار الصالحين .

وهو بحق أيضاً أمة في رجل ، تجسدت فيه كل معاني الرجولة الحقة ، والانسانية الكريمة ، والعطاء المتجدد ، بهمّة لا تعرف الفتور ، وعزيمة صلبة لا تتأثر بالرياح الهوج .

وقد هيأ الله تعالى له عناية خاصة في صغره وشبابه ، فنشأ وترعرع في بيت النبوة ، ولم يعرف غير الاسلام ديناً ، وتخلق بأخلاق القرآن ، وتربى على منهج الوحي ، وتأثر بنحو واضح بصاحب الخلق العظيم ـ مربيه ومؤدبه ومحبّه رسول الله ﷺ ، فهو « حِبُّ رسول الله » .

كان كبيراً في نظر الصحابة وهو شاب صغير ، وعظيماً في تقدير الناس ، وهو فتى حدث ، بما أسبغ الله عليه من نعمة العقل الراجح ، والأناة والحكمة في معالجة الأمور ، ومناقشتها،والجرأة والشجاعة في مواجهة الأحداث .

وهو وإن أخطأ مرة بقتل رجل أعلن الشهادة باجتهاد منه ، ـ وهو أن هذا الرجل قالها اتقاء القتل وتهرباً من حرّ السلاح ـ؛ فإن هـذا الخطأ أعطاه درساً إلى الأبد لا ينساه ، إذ العصمة لاتكون لغير نبي ، ولكن الأحداث تعلِّم العاقل ، والمواعظ والعبر تنفذ إلى أعماق صاحب البصيرة والحكمة ، ذلك الدرس هو حرمة التعرض لمن أقبل على ساحة الإيمان ، والدهر بعدئذ حاكم عليه، ومبيِّن مدى صدقه ، وما على البشر إلا أن يحكموا بالظاهر ، والله يتولى الأنفس والسرائر .

وخير ما نلمس من حياة أسامة بلورة معنى المساواة الاسلامية الحقة في شخصه في الحقوق والواجبات ، سواء في تطبيق أحكام الشريعة ، فلا يستثنى أحد من تطبيق الحدود والعقوبات لحسب أو نسب أو منصب أو جاه ، وترفض شفاعته

بشدة أمام الناس ، لأن مبدأ الشريعة لايعرف الزلفى والوساطة في تضييع الحقوق ؛ ولا يُفضَّل أحد على غيره بغير ميزان التقوى والعمل الصالح ، فالنبي الكريم أخو كل بر تقي وإن كان عبداً حبشياً ، وبريء من كل شقي ، وإن كان شريفاً قرشياً .

وأسامة الشاب القائد الفتى أروع أنموذج للشباب والجيل الصاعد في بطولته النادرة ، وشجاعته الخارقة ، وقدرته على تحمل المشاق ، وتضحيته وصبره وجلده في اقتحام الصعاب ، وعقيدته الصادقة الصافية الراسخة التي لاتنزعزع بأي مـؤثر ، وعقليته النافذة المتبصرة بعواقب الأمور ، كالشيوخ المحنَّكين المجربين ، فلا يعرف الطيش والخفة والنَّزق في تصرفاته وسلوكه ، مما بوأه مكانة عالية في نظر كبار الصحابة ، فحاز الفخار في سن مبكرة ، وقدَّر مستوى المسؤولية ، فكان أهلاً لها ، متطلعاً إلى المزيد من الثقة به في تحمله الكثير من جهاتها ومطالبها .

وهـو بالإضافة لذلك قائد حربي محنَّك ، يضـع الخطة المناسبة لانتزاع النصر على الأعداء ، ويُحكِم تنظيم جيشه قبل المعركة ، ويعبىء نفسيات جنوده بأرفع وأعلى المعنويات ، ممـا جعله أمام جيشه رفيع القدر ، فأطاعوه ، واضح سمات الإخلاص، بيِّن الصراحة ، فأحبوه وتفانوا في إحراز الانتصارات ، بشجاعة وإقدام ، وصبر وجلد ، لأن الجند يتأثرون بالتأكيد بروحانية القادة ، وينصهرون في فلك القيادة الناجحة الحكيمة .

وهل بعد تزكية النبي له من تزكية : « إنه خليق للإمارة » استطاع إثبات كفاءته الرائعة في الداخل والخارج ، في السلم والحرب ، متحدياً نقد المعارضين الذين انتقصوه لصغر سنه ، فمضى لهدفه مرفوع الرأس ، متوج الجبين بإكليل الغار ، غير عابىء بالصعاب ، أو بنقد لاذع ممن لم يحسنوا التقدير ، وتلك هي مزية النفوس الكبيرة .

فرحم الله أسامة في الخالدين ، ورضي الله عن أسامة في المجاهدين ، وعطر الله ثرى أسامة في عظماء المسلمين ، وجعل الله مأواه أعلى جنات الرضوان مع الشهداء والنبيين ، ونفعنا الله تعالى بسيرته العبقة ، وبجهاده المشرف إلى يوم الدين ، وحشرنا في صفه بحبه وحب صحبه حتى يأتينا اليقين . والحمد لله رب العالمين .

الدكتور وهبة الزحيلي

* * *

المصادر

١ ـــ جامع الأصول لابن الأثيرالجزري ، مطبعة السنة المحمدية.

٢ ـــ مسند الامـــام أحمدبن حنبل ، تصوير بيروت ـ المكتب الاسلامي ودار صادر .

٣ ـــ عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ، الناشر محمد أمين دمج بيروت .

٤ ـــ شرح مسلم للامام النووي ، مطبعة محمد توفيق بالقاهرة.

٥ ـــ نيل الأوطار للشوكاني ، المطبعة العثمانية المصرية .

٦ ـــ الطبقات الكبرى لابن سعد ، طبع بيروت .

٧ ـــ الاستيعاب في معرفة الأصحـــاب لابن عبد البر ، مطبعة نهضة مصر .

٨ ـــ أسد الغابـــة في معرفـــة الصحابة لابن الأثـــير الجزري ، منشورات المكتبة الاسلامية ، طهران .

٩ ـــ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقـــلاني ، دار صادر ، بيروت .

١٠ ـــ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقـــلاني ، دار صـــادر ، بيروت .

١١ ـــ تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، نشر محمد سلطان النمنكاني بالمدينة المنورة .

١٢ ــ السيرة النبوية لابن هشام ، طبع البابي الحلبي .
١٣ ــ تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ، دار القاموس الحديث ، بيروت .
١٤ ــ صفة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي، الطبعة الأولى بالهند .
١٥ ــ تهذيب تاريخ ابن عساكر ، مطبعة روضة الشام سنة ١٣٢٩ هـ .
١٦ ــ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير الدمشقي ، الطبعة الأولى مكتبة المعارف ، بيروت .
١٧ ــ حياة الصحابة للعلامة محمد يوسف الكاندهلوي ، نشر دار القلم بدمشق .
١٨ ــ جوامع السيرة ، وخمس رسائل أخرى لابن حزم ، دار المعارف بمصر .
١٩ ــ الأعلام للزركلي ، الطبعة الثانية .
٢٠ ــ قادة فتح الشام ومصر ، اللواء الركن محمود شيت خطاب ، دار الفكر بدمشق .
٢١ ــ صورمن حياة الصحابة (٣) للدكتور عبد الرحمن الباشا، مؤسسة الرسالة .

فهرس

الموضوع	الصفحة